

# مختارات من أشهر القصص العالمية

مختارات من أشهر القصص العالمية
ترجمة: محمد بدران، أحمد بدران
الطبعة: ٢٠٢٣



**العربية للاعلام والفنون والدراسات الانسانية والنشر**

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر - الهرم – الجيزة - مصر
هاتف: ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

http://www.azhabooks.com
**E-mail:** info@azhabooks.com



**بطاقة فهرسة أثناء النشر**

ترجمة: محمد بدران، أحمد بدران – مختارات من أشهر القصص العالمية
– الجيزة – أزهى، ٢٠٢٢
١٧٥ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولي: ٤ – ٩ – ٨٦٣٢١ – ٩٧٧ - ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع: ٢١٩١٥ / ٢٠٢٢

# مختارات من أشهر القصص العالمية

ترجمة

محمد بدران

أحمد بدران

# مقدمة

لقد صدرت في هذه الأيام الأخيرة عدة مختارات من القصص الأجنبية كثير منها حسن الاختيار والترجمة، ولكنها مع ذلك لا تغني عن هذه المجموعة.

ذلك أن كل ما يحتويه منها هذا الكتاب لكتاب محدثين، منهم من مات منذ بضع سنين، ومنهم من لا يزال على قيد الحياة، فهي إذن تمثل أدب القصة المعاصر أحسن تمثيل، يضاف إلى هذا أن الكتاب الذين اخترنا لهم كلهم من الكتاب النابهين، وكثير منهم من يعدون من الكتاب العالميين، ومنهم من نال أعظم جوائز الأدب العالمية، وقد حرصنا على ألا نختار لكاتب واحد أكثر من قصة واحدة حتى تكون هذه المجموعة الصغيرة ممثلة لأكبر عدد مستطاع من الكتاب.

كذلك لم نختر من كتاب كل أمة إلا كاتبا واحدا حتى نستطيع أن نورد أمثلة لكتابات الأمم المختلفة، وإذا كان قد فاتنا أن نختار لعدد أكبر من الكتاب أو أن نختار كتابا من عدد من الأمم أكبر من التي اخترنا منها فإنا نرجو أن نسد هذا النقص بإصدار جزء ثان من هذه المجموعة، وإنا لنرجو أن يجد فيها القراء شيئا من الفائدة والمتعة.

المترجمان

# الشقيقان



**للكاتب النرويجي/ بجور تستجين بجورنسن[*]**

**(جائزة نوبل للآداب سنة ١٩٠٣)**

**١٨٣٢ – ١٩١٠**

كان أحدهما معلما اسمه بارد وكان شقيقه يسمى أندرز، وكان كلاهما يجل أخاه، عاشا في المدينة معا وتطوعا للخدمة العسكرية، وخدما في نفس الفرقة، وارتقى كلاهما إلى مرتبة "أونباشي" ولما عادا من الحرب كان كل الناس يرون فيهما زميلين رائعين شجاعين.

ثم مات أبوهما، وترك متاعا شخصيا كثيرا من الصعب تقسيمه، واتفقا ألا يسمحا لمثل هذه الأمور أن تفرق بينهما، بل اعتزما أن يبيعا كل شيء بالمزاد، وفيه يشتري كل منهما ما قد يريد، ويقتسمان بعد ذلك حصيلة البيع، ونفذا ذلك فعلا.

لكن كان لأبيهما ساعة ذهبية كبيرة اشتهر أمرها، إذ كانت هي الساعة الذهبية الوحيدة التي رآها الناس في تلك الناحية، فلما جاء دورها كان كثير

---

[*] ظل هذا الكاتب أعظم شخصية في الأدب النرويجي الحديث حتى وفاته وكان إلى هذا يتقد حماسة وطنية، وهو واضع نشيد النرويج القومي. ومؤلفاته تتمثل فيها روح تطور النرويج بكامل معانيها، وقد كتب عدة مسرحيات شعرية وقصص قصيرة ونال في عام ١٩٠٣ جائزة نوبل في الأدب، وقصة الأخوين التي اخترناها له في هذه المجموعة – وهي من أولى دراساته للحياة الريفية وتعد من أحسن ما كتب من نوعها في آداب العالم كلها.

من الأثرياء يرغبون في شرائها، فلما دخل القيقان المزاد انسحبوا كلهم، وكان بارد يتوقع أن يدعها أندرز له على حين كان أندرز ينتظر ذلك بعينه من أخيه، فتزايد كل منهما يريد أن ينالها من أخيه وكلما مضيا في التزايد ازدادت نظراتهما حدة.

ولما وصل الثمن إلى عشرين ريالا بدأ بارد يشعر بالألم من تصرف أخيه وزاد في الثمن حتى أوصله إلى ثلاثين، ولما لم ينسحب أندرز بعد ذلك شعر بارد أنه قد نسى عطفه عليه وتذكر أنه هو اكبر الأخوين، وارتفع الثمن عن ثلاثين فاستمر أندرز، ثم رفع بارد الثمن إلى أربعين ريالا مرة واحدة ولم يعد ينظر إلى أخيه.

وساد السكون قاعة المزاد فلم يعد يسمع فيه إلا صوت المنادي وهو يردد الأثمان في هدوء، وقال أندرز في نفسه: إن كان بارد يستطيع أن يدفع فيها أربعين ريالا فهو يستطيع ذلك أيضا، وإذا كان بارد يضن عليه بالساعة فليس عليه جناح أن يأخذها منه، وبدا ذلك لبارد أكبر خزي يمكن أن يحل به فعرض خمسين ريالا في صوت منخفض، وكان هناك كثير من الناس، وقال أندرز لنفسه غنه لن يسمح لأخيه أن ينتصر عليه أمامهم جميعا ورفع الثمن، وانفجر بارد ضاحكا وقال وهو يستدير مغادرا الحجرة "مائة ريال، وأخوتك معها!".

وبعد قليل بينما كان يسرج حصانه الذي اشتراه من المزاد جاءه رجل وقال "الساعة لك لقد كف أندرز يده" فلما سمع الخبر شعر بالندم، وفكر في أخيه لا في الساعة، وكان قد أسرج جواده لكنه انتظر ويده على الحصان

مترددا في الركوب، وخرج أناس كثيرون وبينهم أندرز وقد ابصره أخاه إلى جانب جواده المسرج وهو يهم بالركوب، ولكنه لم يكن يعرف ما يضطرب في عقله من الأفكار ثم ناداه قائلا: "شكرا لك على الساعة يا بارد، لن يأتي يوم ترى فيه أخاك"، فأجابه بارد وقد امتقع وجهه وهو يعتلي صهوة جواده:

"لن يأتي يوم تراني فيه على بابك مرة أخرى"

ومنذ ذلك اليوم لم يضع أحدهما قدمه في المنزل الذي عاشا فيه مع أبيهما.

وتزوج أندرز من أسرة من الزراع بعد ذلك بقليل، ولكنه لم يدع بارد إلى حفلة الزواج، ولم يذهب بارد إلى الكنيسة.

وفي السنة الأولى من زواجه فقد أندرز بقرته الوحيدة، إذ وجدت ميتة ذات صباح حيث كانت معقولة ولم يستطع أن يفسر كيف ماتت، وانتابته مصائب أخرى وساءت حاله يوما عن يوم، لكن الضربة القاصمة حلت به حين احترق مخزن عشبه عن آخره ذات ليلة من ليالي الشتاء، ولم يعرف أحد كيف احترق، وقال أندرز في نفسه "هذا فعل شخص يحب لي الأذى" وبكى طول ليلته، فقد أصبح رجلا فقيرا وفقد كل دافع إلى العمل، وفي الليلة التالية ظهر بارد عند منزل أخيه، وكان أندرز على سريره فانتفض قائما حين دخل عليه أخوه وقال:

"ما الذي تبغيه هنا!" ثم سكت وأخذ يحملق في أخيه، وانتظر بارد قليلا ثم أجاب:

"أني أريد مساعدتك يا أندرز، فأنت في حالة سيئة".

"لست أسوأ حالا مما أردت لي! أذهب ... أذهب وإلا فقد لا أتمالك نفسي من الغيظ"

"إنك مخطئ يا أندرز، أني اعتذر".

"أذهب يا بارد، عفا الله عنا جميعا".

وتقهقر بارد خطوة وقال بصوت مرتجف "إن كنت تريد الساعة فها هي ذي".

فصرخ أخوه .. أذهب يا باردا! "ولم يشأ بارد أن يبقى بعد ذلك فمضى:

وكان الذي جاء ببارد أنه قد آلمه ما حل بأخيه من الكوارث وتبدل غضبه من أخيه شفقة عليه ولكن كبرياء حال في أول الأمر بينه وبين الذهاب إليه، ثم أحس بدافع يدفعه إلى الكنيسة وفيها أقسم ليفعلن خيرا كثيرا ولكنه عجز عن تنفيذ شيء مما اعتزم، وكثيرا ما كان يذهب إلى حيث يستطيع أن يرى البيت لكنه كان يجد شخصا خارجا منه، أو يرى هناك غرباء، أو يجد أندرز واقفا يقطع الخشب في الخارج، كان هناك دائما شيء يمنعه من الدخول.

وفي يوم أحد في أواخر الشتاء ذهب إلى الكنيسة مرة أخرى، وكان أندرز هناك في هذه المرة ورآه بارد، لقد غدا نحيفا مصفرا، وكان يلبس نفس الملابس التي كان يرتديها لما كانا يعيشان سويا، وإن كانت الآن قديمة مرقعة، وظل أندرز طوال وقت الصلاة ينظر إلى القسيس، وخيل إلى بارد أنه إنسان ظريف رقيق القلب، وتذكر أيام طفولتهما وكيف أن أندرز أخا طيبا، فأقسم ليصالحن أخاه مهما حدث، وتملكته هذه الفكرة وسرت في نفسه، فلما قام

أحس بشيء يدفعه إلى الاتجاه نحو أخيه والجلوس إلى جانبه، لكن كان حواليه كثير من الناس، وكان مع أندرز زوجته وهو لم يعرفها بعد، لذلك رأى من الأفضل أن يذهب أندرز في منزله ويحادثه حديثا هادئا.

ولما أقبل المساء اتخذ طريقه إلى المنزل، فلما وصل إلى الباب انتظر قليلا، فقد سمع اسمه يذكر في داخل الدار وكانت زوجة أخيه تقول: "إني واثقة أنه كان يفكر فيك فقد ذهب إلى الكنيسة في هذا الصباح" فأجابها أندرز: "كلا لم يكن يفكر في، إني أعرفه، فهو لا يفكر إلا في نفسه".

ولم يسمع شيئا بعد ذلك، وكان واقفا والعرق يتصبب منه رغم أن الليلة كانت باردة، وكانت الزوجة مشغولة بعمل الشاي، وسمع في الداخل حسيس النار بينما كان طفل يصرخ بين حين وآخر، وكان أندرز يهزه بيديه، ثم تكلمت الزوجة مرة أخرى:

"أعتقد أن كلا منكما يفكر في الآخر رغم أنكما لا تعترفان بذلك".

فقال أندرز: "دعينا نتكلم في موضوع آخر".

وبعد قليل قام ليخرج، واضطر بارد أن يختبئ في مخزن الخشب، لكن أندرز أيضا جاء ليأخذ قطعة منه، واستطاع بارد أن يراه بجلاء وهو مختبئ في ركنه، وكان في هذه المرة قد خلع حلة يوم الأحد ولبس حلته العسكرية التي تشبه حلة بارد، وكانا قد تعاهدا ألا يلبساها وأن يورثاها أبناءهما، وكانت حلة أندرز قد غدت بالية مرقعة فكان جسمه القوي الممتلئ فيها وكأنه ملفوف في خرق بالية، أما بارد فقد كان يسمع الساعة الذهبية تدق في جيبه، وذهب أندرز إلى حيث كان الخشب ولكنه بدل أن ينحني من فوره

ليجمع منه ما يريد أرتكن إلى لوح منه ونظر إلى السماء والنجوم تلتمع فيها وتمتم "يا رب! .... خيرا! .... خيرا يا رب!".

لم ينس بارد طول حياته هذه الكلمات، لقد هم حينئذ أن يتقدم إليه لكن الأخ سعل سعالا شديدا كان في حد ذاته كافيا لأن يحول بينه وبين التقدم إليه، وأخذ أندرز ما يريده من الخشب ومضى خارجا، وقد مر قريبا من بارد حتى لقد مست الفروع وجهه.

ووقف بارد بعد ذلك عشر دقائق وكأنما تسمر في مكانه، ويعلم الله كم من الوقت كان يقف لولا أنه شعر بقشعريرة تتمشى في جسمه فضلا عن إجهاده العاطفي، فخرج وقد اعترف لنفسه بأنه لا يجسر على الدخول الآن، لذا فكر في طريقة أخرى فعاد إلى المخزن وأغلق بابه وأخذ بعض قطع من الفحم من برميل للرمال كان في أحد الأركان، ووجد شظايا رفيعة من خشب الإشراق، وذهب إلى أكوام الدريس وأغلق الباب وأوقد قطعة من الخشب لتضيء له، وبحث عن المشجب الذي كان أندرز يعلق عليه مصباحه إذا جاء في الصباح الباكر ليدرس القش، ثم أخرج الساعة الذهبية وعلقها، وأطفأ النار ومضى، وكان مستريح البال، مطمئن الخاطر حتى أنه كان يسرع الخطى على الثلج ويكاد يقفز وكأنه صبي صغير.

وفي اليوم التالي سمع أن أكوام الدريس قد احترقت في تلك الليلة، ولعل شرارة قد طارت من نار مشعلة وهو يعلق الساعة.

وحزن بارد أشد الحزن حتى لزم منزله طول ذلك اليوم وأحس كأنه مريض، وأخذ كتاب الأناشيد الدينية وشرع يترنم حتى ظن من في المنزل أنه

قد جن، لكنه خرج في المساء وكان ضوء القمر ساطعا، وذهب نحو مقر أخيه، وأخذ يبحث في الرماد حتى وجد قطعة من الذهب المنصهر هي كل ما بقي من الساعة.

وأخذها في يده، وذهب إلى أخيه ليشرح له كل شيء وينشد السلام.

أما ما حدث له بعد ذلك فقد شرحناه من قبل.

وكانت طفلة صغيرة قد راتع ينقب بين الأخشاب، ولمحه بعض الفتيان وكانوا في طريقهم إلى المرقص في تلك الليلة التي ذهب فيها إلى بيت أخيه، ووصف جيرانه أحواله الغريبة في اليوم التالي.

ولما كان كل إنسان يعلم بعجاوته لأخيه فقد وصلت هذه التفاصيل إلى السلطات وبدئ في التحقيق: ولم يثبت عليه شيء، لكن الشبهات حامت حوله، وأصبح الآن – أكثر مما كان في أي وقت آخر – لا يستطيع الاقتراب من أخيه.

لقد شك أندرز في بارد حين احترقت كومة الدريس لكنه لم يقل شيئا، ولما أن رآه يدخل بيته في الليلة التالية وهو ممتقع الوجه غريب الأطوار قال في نفسه:

"لقد ندم على ما فعل، ولكن الفعلة التي فعلها ليست مما يصح العفو عنه". وقد سمع بعدها كيف أن الناس رأوا بارد ليلة الحريق سائرا نحو منزله، ورغم أن التحقيق لم يلق ضوء على الحادث فقد اعتقد في قرارة نفسه أن أخاه هو الجاني واعتبر هذا الفعل جرما لا يغتفر.

وتقابلا بعد ذلك في المحاكمة، بارد في بذته الحسنة، وأندرز في خرقة بالية، ونظر بارد إلى أخيه وهو يدخل، وأحس أندرز في قرارة نفسه أن أخاه يتوسل إليه، وان عيناه تنمان عن هذا الرجاء، وقال لنفسه والدموع في عينيه: "إنه يسألني ألا أقول شيئا ضده، ولما سئل هل يتهم أخاه أجاب بصوت عال ولهجة حازمة "لا".

وأغرق أندرز من ذلك اليوم همومه في الشراب، وسرعان ما ساءت حاله، غير أن بارد كان أسوأ منه حالا رغم بعده عن الشراب، لقد تغير حتى لم يعد الناس يعرفونه.

وذات ليلة جاءت امرأة فقيرة إلى الحجرة الصغيرة التي يستأجرها بارد، ورجت أن يرافقها، وعرفها بارد فقد كانت زوجة أخيه، وأدرك نوع المهمة التي جاءت من أجلها فامتقع لونه وأسرع بارتداء ملابسه، وتبع المرأة دون أن ينبس بكلمة، وكان بصيص من النور يلتمع في نافذة أندرز حينا ويتلاشى حينا، وقد تبعا هذا الضوء، فلما وقف بارد مرة أخرى في المدخل قابلته رائحة غريبة كانت تخنقه، وكان طفل صغير جالسا بجوار الموقد يأكل قطعا من الفحم، وكان مسود الوجه، ونظر إليهما وضحك حتى بدت أسنانه البيضاء، وكان هذا أبن أخيه.

وكان أندرز في سريره ملتفا بكل ملابسه، مصفر الوجه، هزيل الجسم، معتل الصحة، وكانت جبهته عالية ناصعة، وكان يحملق في أخيه بعينين فارغتين، واصطكت ركبتا بارد وجلس إلى جانب السرير وطفق يبكي بكاء مرا، فنظر الرجل المريض إليه ولم يقل شيئا، وبعد قليل طلب إلى زوجته أن

تتركهما، لكن بارد أشار إليها أن تبقى، ثم بدأ الشقيقان يتحادثان، وشرحا كل شيء منذ اليوم الذي تزايدا فيه على الساعة إلى هذا اليوم الذي تلاقيا فيه مرة أخرى، وانتهى بارد بأن أخرج قطعة الذهب المنصهر التي كان يحملها دائما معه، وقد أدركا خلال حديثهما أنهما لم يكونا قط سعيدين يوما من الأيام.

ولم يقل أندرز شيئا كثيرا، فقد كان في منتهى الضعف، وبقى بارد يعني به طيلة أيام مرضه،

وذات صباح عندما استيقظ أندرز قال:

"إني أشعر بتحسن الآن، وسنعيش يا أخي سويا كما كنا في الأعوام الخالية، ولن نفترق أبدا".

لكنه مات في ذلك اليوم نفسه.

أما الأرملة والطفل فقد أخذهما بارد معه ورعاهما أحسن رعاية، وكان ما تهامس به الإخوان بجانب السرير في الحجرة المغلقة قد اخترق الجدران وعرفه كل من في الوادي، وصار بارد أعظم الناس قدرا، وأجله الناس إجلالهم رجلا أصيب بذرء فادح، ثم وجد السلام مرة أخرى، أو رجلا عاد بعد غيبة طويلة، وزاده حبهم إياه ثقته بنفسه، وأصبح بارد رجلا تقيا، وأراد أن يكون ذا نفع لغيره فانقلب الأونباشي القديم معلما، وكان أهم ما يعني بغرسه من الفضائل في نفوس الصبيان هو الحب أولا، والحب أخيرا، ومان هو أول من عمل بهذه العقيدة حتى أحبه الصبيان جميعا واتخذوه رفيقا للهوهم وأبا لهم.

# العقد

**للكاتب الفرنسي/ جي ده موبسان**(*)

**١٨٥٠ – ١٨٩٣**

**كانت إحدى الفتيات الجميلات الساحرات ممن شاء القدر أن يولدن في أسر متواضعة، ولما كانت لا تمتلك بائنة تغري أحد الرجال البارزين أو الأثرياء بأن يحبها ويتزوجها، فقد وافقت على الزواج من كاتب صغير في وزارة المعارف.**

**وكانت ملابسها بسيطة لأنها لم تكن تطيق تكاليف الأناقة، لكنها كانت تبدو من التعاسة كأنها تزوجت رجلا أقل منها منزلة، ذلك أن النساء لا يعتمدن على شرف المولد أو علو النسب بل يعتمدن على الجمال والرشاقة والسحر، فالرقة الطبيعية والذوق الجميل في التزين والقدرة على الانسجام مع من حولهن، هذه وسائلهن إلى الأرستقراطية، وكثيرا ما ترفع فتيات من الطبقة الدنيا إلى منزلة أعظم السيدات العريقات في النسب.**

**وكانت تسيطر عليها وتقلق بالها على الدوام فكرة أنها ولدت لترفل في حلل الترف والبذخ، وكم كانت تتألم حين ترى ما يحيط بها من مسكن حقير**

---

(*) نابغة فرنسا في كتابة القصة القصيرة بدأ حياته موظفا في الحكومة، وكان صديقا حميما لفولتير، وكان يجتمع في بيته، معظم رجال الأدب النابهين في ذلك الوقت، وقد بدأ هو الكتابة بتشجيع فولتير نفسه، وكان موبسان رجلا جم النشاط عظيم الحيوية ولكنه أتلف صحته بالإفراط حتى اختتمت حياته خاتمة محزنة في مستشفى للأمراض العقلية.

وأثاث قديم وستائر رثة، وكانت صغائر الأشياء لا تكاد تقلق بال أية أمرأه من طبقتها تعذبها وتفت في عضدها، فكانت إذا رات خادمتها الوحيدة التي تقوم بجمع أعمال الدار أثارت رؤيتها في قلبها أمالها الضائعة، وبعثت في نفسها حنينا إلى المتعة يكاد يذهب بعقلها، كانت ترى بعين الخيال الأبهاء الساكنة المفروشة بالسجاجيد الشرقية، تضيئها الثريات المتلألئة والحجرات الواسعة بستائرها الحريرية، والخدم ذوي الملابس الزاهية مصطفين حول الكراسي الساندة، والموقد الذي يشع الدفء في أنحاء الحجرة، والنضد الجميلة عليها تحف غالية أعدت للاجتماع بالأصدقاء الأعزاء من الرجال البارزين المعروفين الذين يستهوون كل امرأة، وكانت إذا حان وقت العشاء تجلس إلى جانب مائدة مستديرة عليها غطاء لم يرفع عنها منذ ثلاثة أيام، وأمامها زوجها يرفع الغطاء عن وعاء الحساء وينادي "ألا ما ألذ هذا الحساء، إنه طعامي المحبوب" أما هي فكانت تفكر في الموائد الفاخرة، وقد أثقلت بالأطعمة الشهية في أطباق فضية لامعة، وفي حجرات زينت جدرانها بالرسوم الجميلة تمثل أشخاصا وأطيار غريبة في غابات سحرية، وكانت تحلم بلذيذ الطعام يقدم لها في صحاف نادرة عجيبة، وبهمسات تسر إليها فتفتر عن ابتسامة أبي الهول، ويداها تعبثان بتقطيع لحم سمكة جميلة أو جناح دجاجة سمينة.

ولم يكن لديها أثواب جميلة ولا جواهر ثمينة، وإن كانت لا تعني بغير الملابس والجواهر، وتحي بأنها ما خلقت إلا لتتمتع بها، كانت تتوق إلى أن ترى نفسها تفتن وتستهوي، تحسدها النساء ويتودد إليها الرجال، وكانت لها صديقة ثرية من أيام الدراسة، لكنها انقطعت عن زيارتها لأنها بعد كل زيارة لها كانت تقضي يومها بين دموع الحزن والأسى والبؤس والشقاء.

وعاد زوجها ذات يوم إلى منزله مزهوا وفي يده خطاب كبير وصاح: "هذا شيء لك!".

وسرعان ما فضت الغلاف وأخرجت منه بطاقة طبع عليها:

"يتشرف وزير المعارف وحرمه بدعوة السيد والسيدة لوزال لحضور حفلة استقبال في الثامن عشر من يناير بدار الوزارة".

وبدلا من أن يستخفها الفرح كما كان يتوقع زوجها ألقت بطاقة الدعوة باهتياج على الخوان وصاحت "وماذا تفدني هذه الدعوة؟"

"لقد كنت أظن أنها تسرك، فإنك لا تخرجين من منزلك أبدا، وهذه فرصة نادرة طيبة تتيح لك الخروج منه، لقد تعبت كثيرا حتى حصلت عليها، فكل إنسان يحاول أن يحصل على دعوة لأن الدعوات محدودة ولم يحصل عليها من الكتبة إلا عدد قليل! وسترين هناك كل كبار الموظفين".

فنظرت إليه وهي محنقة وقالت له "وما تظنني أرتدي في مثل هذا الحفل؟" ولم يكن قد فكر في هذا الموضوع من قبل، ولكنه أجاب مترددا "إن هذا الثوب الذي تلبسينه في المسرح يبدو لي غاية في الجمال ...".

لكنه لم يتم جملته، فقد رأى زوجته تبكي، وانحدرت دمعتان كبيرتان على خديها.

وقال وقد غص بريقه! "يا الله ماذا حدث؟".

واستطاعت بجهد شديد أن تتغلب على عواطفها وقالت في صوت هادئ وهي تجفف دموعها.

"لا شيء! كل ما في الأمر أني ليس عندي رداء للسهرة، ولذلك لن أستطيع الذهاب إلى هذه الحفلة، فأعط الدعوة لأحد أصدقائك ممن تمتلك زوجاتهم ملابس لأحسن من ملابسي".

فحزن الزوج لذلك أشد الحزن وقال لزوجته:

"دعينا نبحث الأمر يا ماتلدا، كم تظنين يكلف ثوب السهرة، على أن يكون ثوبا بسيطا يمكن الاستفادة منه فيما بعد؟".

وفكرت في الأمر لحظات وهي منشغلة في الحساب تساءل نفسها أي مبلغ تستطيع أن تقترح دون أن تهز مشاعر الكاتب الصغير هزا، وتلقي منه رفضا تاما، ثم قالت: "لست أدري، لكنني أظن أني أستطيع تدبير الأمر بأربعمائة فرنك".

فامتقع وجهى قليلا، لقد طلبت بالضبط مقدار ما أدخر لشراء بندقية والقيام برحلات الصيد في أيام الآحاد في الصيف القادم مع بعض الأصدقاء في سهل تانتير، لكنه أجابها بقوله:

"حسنا جدا، سأعطيك الأربعمائة فرنك، لكن احرصي على أن يكون ثوبا أنيقا حقا" ..

وقرب يوم الحفلة، ورغم أن الثوب قد أعد، فقد كانت السيدة لوازل قلقة غير راضية؟

وسألها زوجها ذات مساء "ما الخبر؟ لقد تغيرت حالك في الأيام الثلاثة الماضية"

"نعم يحزنني أن ليس لدي جواهر أتزين بها، حتى ولا قرط، وسأشعر دائما أنني فقيرة، إن من الخير ألا أذهب إلى الحفلة".

ولكنك تستطيعين أن تتزيني ببعض الزهور الناضرة، غنها "طراز" هذا العام! وفي وسعك أن تحصلي على وردتين جميلتين أو ثلاث وردات بعشرة فرنكات".

لكنها لم تقتنع وقالت "لا ...! ليس أشد إيلاما للنفس من الظهور بمظهر الفقر وسط جماعة من السيدات الثريات".

"ألا ما أشد حمقك! لماذا لا تطلبين إلى صديقتك مدام فوستييه أن تعيرك بعض جواهرها! إن لك من الصلة بها ما يجيز هذا الطلب".

وهنا صاحت الزوجة فرحة "طبعا! لم يخطر ذلك ببالي".

وفي اليوم التالي زارت مدام فورسنييه وشرحت لها المسألة، فقامت مدام فورستييه إلى خزانتها وجاءت بحقيبة جواهر كبيرة وفتحتها أمام صديقتها لتختار منها ما تريد.

انتقت مدام لوازل عقدا من الآلي وبعض الأساور وصليبا بندقيا مصنوعا من الذهب ومرصعا بالحجارة الكريمة.

فأحاطت عنق صديقتها وقبلتها، وأسرعت نحو كنزها السمين، وتزينت بهذه الحلي، ونظرت إلى صورتها في المرآة، وترددت بعض الشيء، ولم تطاوعها نفسها لأن تخلعها وتردها إلى صاحبتها.

وظلت تردد سؤالها "أليس عندك غير هذه الحلي؟".

فأجابتها "بلى عندي فها ذي أنظري ولست أعرف ماذا تؤثرين".

وأبصرت أخيرا علبة مكسوة بالحرير في داخلها عقد فخم من الماس، فدق قلبها وتاقت نفسها للتزين به، ومدت يديها إليه وهما ترتجفان، وأخرجته من موضعه، وطوقت به جيدها وأخذت تنظر إلى خيالها في المرآة في غبطة وانشراح.

ثم قالت في تردد وارتياب! "أتعيرينني هذا؟ أنك إن فعلت فلن أحتاج إلى شيء سواه".

"نعم بكل تأكيد".

وكانت ليلة الاستقبال، وكان نصر مدام لوازل مؤزرا، كانت آية في الأناقة والبهجة، وكانت في ثوبها البديع أجمل امرأة في الحفلة، كان الرجال يحدقون فيها ويسألون عن اسمها، ويطلبون أن يقدموا إليها، وطلب الشبان إليها أن تراقصهم، بل إنها جذبت انتباه الوزير نفسه.

ورقصت كثيرا وهي مذهولة من الفرح معجبة بجمالها الفاتن ونجاحها العظيم، وكانت تخطو كأنها في حلم لذيذ ومن حولها الناس الذين أثارت في قلوبهم الإعجاب بمكانتها والخضوع لها، والذين ظفرت بهم ذلك الظفر العزيز على قلوب النساء.

واستطاعت انتزاع نفسها من الجمع حوالي الرابعة صباحا، وكان زوجها مع ثلاثة من زملائه من منتصف الليل في انتظار فراغ زوجاتهم من اللهو في حجرة استقبال صغيرة مهجورة، فلما جاءته ألقى بمعطفها على كتفيها، المعطف القديم الذي كان التناقض يبدو واضحا بين حقارته وفخامة ثياب

الرقص، وكانت تدرك ما بين ثيابها الخارجية وثياب السهرة من تناقض، فأسرعت بالخروج حتى لا تقع هليها عين النساء ذوات الفراء الفخم الجميل، وحاول زوجها أن يهدئ من سيرها فقال لها: "انتظري هنا حتى أستدعي عربة فإني أخاف عليك أن يصيبك البرد في خارج الدار"، ولكنها لم تستمع إليه وأسرعت نازلة على الدرج وخرجت ومعها زوجها إلى عرض الطريق، ولكنها لم تجد عربة، وظلا يبحثان وينادیان السائقين الذين تقع عليهم أعينهما من بعيد، فلما يئسا من العثور على ضالتهما اتخذا سبيلهما وهما يرتعشان من البرد حتى وصلا ضفة السين، وأخيرا وجدا إحدى العربات العتيقة التي لا ترى في باريس إلا بعد أن يخيم الظلام، كأنها تخجل أن تعرض حقارتها في ضوء النهار!.

وأقلتهما العربة إلى باب دارهما في شارع الشهداء، وصعدت متثاقلة، لقد انتهى كل شيء بالنسبة إليها، أما زوجها فكان يفكر في أن عليه أن يكون في مقر عمله قبل الساعة العاشرة صباحا.

وخلعت ثيابها الخارجية أمام المرآة لتلقي نظرة وداع أخيرة على نفسها في كمال زينتها، لكنها ما لبثت أن صرخت صرخة عالية مفاجئة، ذلك أنها لم تجد العقد الماس حول جيدها.

وسألها زوجها وكان قد خلع نصف ملابسه: "ما الخبر؟" فاستدارت إليه في فزع وقالت:

"إني ... إني ... فقدت عقد مدام فورستييه!".

فقال في فزع: "ماذا؟ فقدت الجواهر؟ إن هذا مستحيل".

وبحثا في طيات الثوب وفي كل الجيوب ولكن في غير طائل.

"هل أنت واثقة من أنه كان حول عنقك حين خرجنا من حفلة الرقص؟"

"نعم. أذكر أني تحسسته ونحن في ردهة وزارة المعارف"

"ولكن لو كنت فقدته في الشارع لسمعنا صوت وقوعه، لا بد أنه وقع في العربة"

"نعم. أظن ذلك! هل أخذت رقمها؟"

"لا، هل أخذتها أنت؟"

"لا!"

وحملق كلاهما في الآخر وهو في شدة الذهول وأخيرا ارتدى لوزال ملابسه مرة أخرى.

"سأذهب للبحث عنه في الطريق الذي قطعناه ماشيين لعلي أعثر عليه".

وغادر المنزل، أما هي فلم تجد إلى النوم سبيلا وفقدت المقدرة على التفكير، فألقت بنفسها على كرسيها وهي في ملابس السهرة دون أن تشعل النار لتدفئ بها نفسها، وعاد زوجها إليها حوالي الساعة السابعة، وأخبرها أنه لم يجد الماس، وأبلغ الأمر إلى الشرطة وأعلن في الصحف عن جائزة، وقام بتحريات في مجال العربات القديمة، وزار كل مكان يظن فيه بارقة من الأمل.

وظلت زوجته طوال النهار تعاني الآلام، وقد هدت هذه المصيبة ركنها وكسرت في ذرعها.

وعاد لوزال بعد الظهر، وهو ممتقع الوجه، لقد ذهبت كل جهوده أدراج الرياح، وقال: "يجب أن تكتبي إلى صديقتك لتخبريها بأن قفل العقد قد كسر وأنك تصلحينه، وهذا يعطينا بعض الوقت نتدبر فيه الأمر".

وبعد أسبوع لم يبق لديهما أمل، وقال لوازل وقد بدا أكبر خمس سنوات مما كان عليه من قبل:

"يجب أن نتخذ الوسائل التي تمكننا من تعويض الجواهر المفقودة"

وفي اليوم الثاني أخذا العلبة الفارغة وذهبا إلى الصائغ الذي وجدا اسمه على غطائها من الداخل، ونظر هذا في دفاتره فقال لهما: "إن العقد لم يشتر مني يا سيدي، وكل ما يمكن أن يكون لي به من علاقة أنني بعت العلبة التي كان فيها".

وذهبا من جوهري لآخر يحاولان أن يجدا عقدا يماثل العقد الذي فقداه بالضبط مستعينين في هذه المقارنة بما يذكرانه من صفات العقد المفقود، وكان كلاهما قد أمضه الحزن واليأس.

وأخيرا عثرا على عقد من الماس خيل إليهما أنه يشبه العقد المفقود كل الشبه، وكان ثمنه أربعين ألف فرنك، ورضى الجوهري أن يبيعه لهما بستة وثلاثين، وتوسلا إليه ألا يتصرف فيه قبل ثلاثة أيام، واشترطا على البائع أن يشتريه منهما بأربعة وثلاثين ألفا إن وجدا العقد الأصلي قبل آخر فبراير.

وكان لوازل قد ورث عن أبيه ثمانية عشر ألف فرنك واعتزم أن يقترض الباقي، وعقد من أجل ذلك قروضا متعددة، فاقترض ألف فرنك من هذا وخمسمائة من ذاك وخمسة جنيهات ذهبية من ثالث وثلاثة من رابع، وأخذ

على نفسه مواثيق بأداء الديون، وقبل من الشروط أفدحها، ولجأ إلى المرابين وإلى كل من يتخذ إقراض المال حرفة له، وقامر بمستقبله كله ووقع بإمضائه كل ما طلب إليه أن يوقعه، وهو لا يدري هل يستطيع الوفاء بما أخذ نفسه به، فلما تم له الحصول على المبلغ المطلوب ذهب ليأتي بالعقد الجديد وهو كاسف البال؛ يفكر فيما سيحل به من آلام في مستقبل الأيام، وفي الكارثة التي لا شك أن ستحل به، وفيما سيضطر إليه من حرمان وعذاب في الجسم والعقل، فلما وصل إلى الجوهري وضع مبلغ الأربعين ألف فرنك أمامه.

ولما ذهبت مدام لوازل لإرجاعه أنبتها مدام فورستييه وقالت لها:

"لقد كان يجب عليك أن تعيديه قبل الآن فلعلي كنت أحتاج إلى لبسه".

ولحسن الحظ لم تفتح العلبة؛ فماذا كان يحدث لو لاحظت أي اختلاف دقيق بين العقدين؟ وماذا كانت تظن؟ وماذا تقول؟ ربما اتهمها بالسرقة!

وعرفت مدام لوازل الآن آلام الفقر المدقع وتعودته ولبست له لبوسه، وقاست آلامه وصبرت عليه صبر الأبطال، فلقد كان عليها أن تؤدي الدين كاملا، فطردت الخادمة وغادرت الشقة وسكنت في علية، وقامت بكل أعمال المنزل الشاقة وأعمال المطبخ، تغسل الأواني عقب الطعام، وتغسل الثياب وتعلقها على الحبال لتجف، وتحمل القمامة كل صباح إلى الشارع، وتحضر الماء، وتقف كل بضع خطوات لتستعيد قواها، وتخرج كل صباح كما يخرج نساء العمال وسلتها في يدها إلى البدال والقصاب وبائع الخضر، وتساوم وتقاتل في سبيل دانق، وكان لا بد من تغيير السفاتج القديمة بأخرى جديدة في آخر كل شهر كسبا للوقت، واشتغل زوجها بعد الظهر حاسبا في

محل تجاري، وكان يقوم بالليل بنسخ الأوراق نظير دراهم قليلة. ودامت هذه الحال السيئة عشر سنين.

وفي نهايتها وفى بالدين عن آخره وبالأرباح الفاحشة والفوائد المتراكمة.

وأصبحت مدام لوازل تبدو سيدة عجوزا، ومثالا للمرأة الفقيرة في خشونتها وتقشفها، وأهملت شعرها، واحمرت يدها، واخشوشن صوتها، وتعودت غسل الأرض بقوة، ولكنها كانت في بعض الأحيان حين يكون زوجها في عمله تجلس بجانب النافذة وتسبح بأفكارها بعيدا إلى تلك الليلة ليلة جمالها وانتصارها، ماذا لو لم تفقد العقد؟ من يدري؟ كم من أشياء تافهة تستطيع أن تتحكم في حياتنا.

وذهبت في يوم أحد للنزهة في الشانزليزيه، للاستجمام بعد أسبوع من العمل الشاق، ورأت سيدة ومعها طفل، وعرفت فيها مدام فورستييه، كانت تبدو كعهدها صغيرة جميلة جذابة، وشعرت مدام لوازل بهزة تسري في جسمها، هل تتحدث إليها؟ ها هو ذا الدين قد وفى به، فلم لا تخبرها بالقصة كلها؟ ولم لا؟

"صباح الخير يا جين". ولم تعرفها صديقتها ودهشت من لهجتها، وعجبت كيف تخاطبها سيدة وضيعة دون كلفة، وأجابتها وهي مترددة:

"إنني متأسفة، فلست أعرفك، لا بد أنك مخطئة".

"لا، إنني ماتيلدا لوازل"، وأفلتت من صديقتها صيحة دهشة.

"يا عزيزتي المسكينة! لشد ما تغيرت!"

"نعم لقد قاسيت كثيرا مذ رأيتك لآخر مرة، وكل هذا بسببك."

"بسببي أنا!؟ ماذا تعنين؟"

"هل تذكرين عقد الماس الذي أعرتني إياه لأتحلى به في حفلة الاستقبال عند وزير المعارف؟".

"نعم، وماذا بعد ذلك؟"

"لقد فقدته"

"لست أفهم؟ إنك أرجعته إلي".

"إني أحضرت إليك عقدا آخر يماثله تماما، ولقد ظلنا طوال العشر السنين الماضية نؤدي ثمنه، وأنت تعلمين أنا لم نكن نملك مالا، وأن أداء هذا الثمن قد أبهظ كاهلنا، على أية حال لقد انتهى الأمر وليس في وسعي أن أخبرك بما نلت من راحة بعد أو وفينا بالدين."

وجمدت مادم فورستييه في موضعها.

"هل تقصدين أنك اشتريت عقدا من الماس بدل عقدي؟"

"نعم! أولم تلاحظينه، لقد كان يشبهه تماما ... وابتسمت في فخر ورضا وأمسكت مدام فروستييه بكلتا يديها في ألم شديد.

"مسكينة، يا ماتيلدا، إن عقدي كان من الماس الزائف ولم يكن يساوي أكثر من خمسمائة فرنك!!"

# قصة الطبيب والحقيبة الكبيرة

**للكاتب الاسكتلندي/ ربرت لويس استيفنسن[*]**

كان المستر شيلاس سكودا مور شابا أمريكيا بسيط الطبع بعيدا عن الشر، ومما كان يزيد في قيمة طباعه أنه كان من سكان نيو إنجلند، وهي جزء من الدنيا الجديدة لا يشتهر بمثل هذه الطباع، وكان رغم ثروته الواسعة يحتفظ بمفكرة صغيرة للجيب يدون فيها كل ما ينفق، وقد اختار أن يدرس مغريات باريس من الطابق السابع في "فندق" في الحي اللاتيني، وكان سحه يرجع في الغالب إلى حكم العادة، وكانت اهم فضائله التي اشتهر بها بين زملائه هي الحياء والشاب.

وكانت تسكن في الغرفة المجاورة له سيدة ذات مظهر جدي جذاب، شديدة الأناقة في تجملها، ظنها أول ما وصل أميرة لكنه عرف بعدئذ أنها تدعى مدام زفيرين، وأنها أيا كان مركزها في الحياة ليست ذات لقب، وكثيرا ما كانت مدام زفيرين تزاحم الأمريكي الشاب على سلم الفندق وتتعطف عليه بكلمة ونظرة من عينيها السوداوين  ثم تختفي بين حفيف الملابس الحريرية وهي تظهر له كعبها وساقيها الجميلتين، ولعلها كانت تفعل هذا

---

[*] ولد في سنة ١٨٥٠، ومات سنة ١٨٩٤، وقد لازمه المرض طيلة حياته حتى قضى عليه في سن مبكرة، وكان شغوفا بالمغامرة متيما بالجمال، وسيظل من أعلام الأدب الإنجليزي، وستظل روايات المغامرات التي كتبها "جزيرة الكنز" و"المخطوفة" و"كاتربوتا" تخلب الألباب، وهذه القصة التي نقدمها الآن مأخوذة من كتابه "نادي الانتحار" وهو مجموعة من القصص القصيرة وقد مثلت على الشاشة البيضاء ولا قت نجاحا كبيرا.

لتقتنص الأمريكي الشاب، ولكن هذه الحركات لم تكن تشجع المستر سكودا مور بل كانت توقعه في حيرة وتخجله، وكثيرا ما جاءت إليه في الليل تسأله الثقاب أو تعتذر إليه من مضايقات كلها المزعومة، لكن فمه كان يغلق في حضرة سيدة في مثل هذا السمو وينسى كل ما عرفه من اللغة الفرنسية في الحال، ولا يستطيع إلا أن يحملق فيها حتى تغادره، ورغم هذا فكثيرا ما تحدث عنها في زهو إذا ما أيقن أن ليس معه إلا قليل من الرجال.

وفي الغرفة التي تلي حجرة الأمريكي من الجهة الأخرى – فقد كان في هذا الطابق ثلاث غرف –كان يعيش طبيب إنجليزي ينتاب سمعته الشك، وقد اضطر الدكتور نويل – وكان هذا اسمه – أن يغادر لندن حيث كان يتمتع بشهرة واسعة متزايدة، وكان البعض يقول إنه كان لرجال الشرطة دخل في هذا الانتقال، وكان من عادته وهو صاحب المركز الكبير في حياته المبكرة أن يتجول الآن في الحي اللاتيني منفردا في شيء كثير من البساطة ويهب معظم وقته للدرس، وقد تعرف به المستر سكودا مور، وكانا من وقت إلى آخر يتناولان العشاء سويا في مطعم على ناصية الشارع يمتاز برخصه.

وكان لسيلاس سكودا مور كثير من العيوب الصغيرة لا تزري به كثيرا ولا تحول رقة طباعه بينه وبين الانغماس فيها، وكان أهم هذه النقائص حب الاستطلاع، فقد ولد فضوليا، وكانت الحياة – وعلى الأخص نواحي الحياة التي لم يجربها – تسره إلى درجة تثير العواطف.

وكان يتساءل في قحة ويتدخل في كثير من النواحي بقلة تبصر، وقد شوهد مرة يحمل خطابا إلى صندوق البريد ويرفعه في يده ويقبله من كل

ناحية، ويدرس العنوان في عناية، ولما أن وجد فراغا في الجدار الذي يفصل غرفته عن غرفة مدام زفيرين لم يشأ أن يسده بل زاده اتساعا، وهذب الفتحة واستخدمها ليتجسس منها ويحشر أنفه في شئون جارته.

وفي يوم من أواخر شهر مارس، وكان فضوله قد ازداد حتى أوسع الفتحة ليستطيع أن يكشف ركنا آخر من الغرفة، ذهب في المساء كعادته ليرقب حركات مدام زفيرين، ولكنه دهش إذ وجد الفتحة قد سدت من الجهة الأخر، وزادت دهشته حين أزيح السداد فجأة وطرقت أذنه عاصفة من الضحك، ويظهر أن الذي دعا إلى سدها أن سقوط بعض الجير قد كشف سر فتحة الجدار، ورأى جارته ترد تحيته، وشعر مستر سكودا مور بكثير من الضيق، وغضب على مدام زفيرين غضبا شديدا، لكنه لام نفسه فيما بعد حين وجد في اليوم التالي أنها لم تعمل عملا يحرمه متعته المحببة إليه، فقد استمر في الاستفادة من إهمالها لإشباع فضوله.

وفي اليوم التالي استقبلت مدام زفيرين في زيارة طويلة رجلا طويل القامة ضعيف البنية في الخمسين أو يزيد، لم يره سيلاس من قبل، وكان قميصه الملون وحلته البنية يدلان على أنه بريطاني، كما كانت عينه الرمادية الداكنة تثير في سيلاس شعورا بالبرودة، وكان لا ينفك يحرك فمه من ناحية إلى أخرى ويديره أثناء النقاش الذي كان يدور همسا، وقد بدا للأمريكي أكثر من مرة أن الإشارات تتجه إلى غرفته، لكن الذي استطاع أن يتحقق منه بعد الإنصات الدقيق هو هذه العبارات التي نطق بها الرجل الإنجليزي بصوت عال كأنما كان يرد على تمنع أو معارضة.

"لقد درست ذوقه ومزاجه دراسة وافية، وأكرر القول مرة بعد مرة أنك المرأة الوحيدة من نوعها التي أستطيع الحصول عليها ..."

وعلى أثر ذلك تنهدت مدام زفيرين وبدت كأنها تستلم له كما يستسلم الإنسان لشخص له عليه سلطان لا يحد.

وفي عصر ذاك اليوم سد المرقب تماما، فقد وضع نضد أمامه من الناحية الأخرى، وبينا كان سيلاس لا يزال يندب حظه ويعزو ذلك إلى البريطاني اللعين أقبل البواب يحمل إليه خطابا بخط نسائي، مكتوبا لغة فرنسية غير دقيقة، وليس عليه توقيع، وفيه دعوة حارة للأمريكي الشاب بأن يحضر إلى أحد الملاهي في الساعة الحادية عشرة من مساء ذلك اليوم، وتعارض في ذهنه الفضول والحياء، ونشبت بينهما معركة حامية في قلبه، تنتصر فيها العفة تارة وتنغلب الجرأة تارة أخرى؛ وكانت النتيجة أن ذهب مستر سيلاس سكودا مور قبل العاشرة بكثير إلى الملهى وأدى أجر الدخول وهو يشعر أنه مقدم على مغامرة شيطانية لا تخلو من روعة.

وكانت حفلة راقصة مقنعة صاخبة، وفي أول الأمر حيرت الأضواء والزحام المخاطر الصغير، ثم جرفه التيار فاندفع فيه وخاض غماره بأكثر مما فيه من رجولة، وشعر أنه على استعداد لمواجهة الشيطان نفسه، واختال في الملهى كأنه فارس وبينما هو على هذه الحال إذ لفتت نظره مدام زفيرين وهي منهمكة مع الإنجليزي (....) خلف أحد العمدة، وتغلبت عليه في الحال حاسة القطط في استراق السمع، فتقدم قريبا من خلفهما حتى كان يستطيع سماعهما، فسمع البريطاني يقول "ها هو ذا الرجل، ها هو ذا صاحب الشعر

الأصفر الذي يتحدث إلى الفتاة ذات الثوب الأخضر".

ورأى سيلاس شابا أنيقا قصير القامة كان بلا ريب موضوع المحادثة، وقالت مدام زفيرين: "حسنا سأفعل ما في وسعي، لكن تذكر أنني قد أخدع في هذا الأمر كما يخدع فيه أي إنسان غيري ..."، فأجابها رفيقا: "صه أنا المسؤول عن النتيجة، ألم أخترك من بين ثلاثين، أذهبي، لكن خذي حذرك من الأمير فلست أدري أية حادثة مشئومه قد جاءت به الليلة إلى هذا المكان كأن ليس هناك عشرات الملاهي في باريس أحق بزيارته من هذا المهلي الصاخب ورواده من الطلبة والمهرجين، أنظري إليه حيث يجلس كأنه إمبراطور متحكم لا أمير في أيام عطلته، ومرة أخرى حالف سيلاس الحظ، فقد رأى شابا قوي الجسم وسيم الوجه ظريفا مهيبا يجلس إلى مائدة مع شاب آخر أنيق أصغر منه بعدة سنين يخاطبه في إجلال ظاهر، وكان لفظ الأمير يطرق سمع سيلاس وهو الرجل الذي لم يتعود من قبل سماع الحديث عن الأمراء، ويجعل لمنظر الشخص الذي يلقب بهذا اللقب أثره المألوف في عقله، وقد ترك مدام زفيرين ورجلها الإنجليزي واتخذ طريقه خلال الحفل، واقترب من المنضدة التي شرفها الأمير ورفيقه بالجلوس إليها.

وكان المير يقول "أقول لك يا جبر الدين إن هذا العمل جنون، لقد اخترت أخاك لهذه المهمة الخطرة وعليك أنت أن تراقب سلوكه، لقد رضى أن يتأخر أياما في باريس وكان هذا جرأة منه إذا ما نظرنا إلى أخلاق الرجل الذي عليه أن يلقاه، بعد أن لم يبق بينه وبين سفره أكثر من ثمان وأربعين ساعة، ولم يبق بينه وبين محاولته الحاسمة أكثر من يومين أو ثلاثة أيام، أسألك هل هذا مكان يليق أن يقضي فيه وقته؟ لقد كان حقا عليه أن يقضي هذا

الوقت في التدرب على العمل، وأن ينام الساعات الطوال، ويقوم بجولات معتدلة على قدميه، ويتبع نظاما صارما في غذائه، لا يدخل فيه النبيذ أو الخمور، هل يعتقد الكلب أنا كلنا نهزل؟ إن الأمر جد يا جبر الدين لا هزل". وأجاب الكولونيل جبر الدين: "إني أعرف الشاب معرفة جيدة ولا أجد حاجة للتدخل في أمره، ولا أجد ما أخشاه، إنه أشد حذرا مما تظن، وله روح لا تقهر، ولو كان الأمر أمر سيدة لما قلت كل هذا، ولكني أكل إليه أمر الرئيس والخادمين دون أن أخشى قط شيئا".

وأجاب الأمير: "يسرني أن أسمع منك ذلك، ولكن ضميري غير مستريح، واعلمي أن الخادمين جاسوسان يتقنان التجسس كل الإتقان، ألم ينجح هذا الشرير حتى الآن ثلاث مرات في الهرب من الرقابة وقضاء ساعات طويلة في أمور خاصة لا بد أنها خطيرة؟ ولو كان الذي يقتفي أثره هاويا غير محترف لما وقف على أثره، ولكن عدم اهتداء رودلف وجيروم عليه كان بلا شك عملا متعمدا مقصودا، وما من شك في أن الذي أضلهما رجل لديه من الأسباب القوية والوسائل غير العادية ما يمكنه من تضليلهما.

وأجب جبر الدين وفي نغمته ما يشعر بالامتعاض: "أعتقد أن الأمر أصبح الآن بيني وبين أخي".

فأجاب الأمير فلوريزل: "إني أسمع بذلك يا كولونيل جبر الدين، وحسبي الآن لهذا السبب نفسه أن تكون على استعداد لقبول نصائحي، إن هذه الفتاة ذات الرداء الأصفر تحسن الرقص".

واتجه الحديث إلى التوافه العادية التي يتحدث عنها في ملهى في باريس

أيام الحفلات الراقصة، وتذكر سيلاس أين هو، وأدرك أن موعد ذهابه إلى أداء مهمته قد حان، وكان كلما فكر في أمره قبل ميله لهذه المهمة، وفي هذه اللحظة ابتدأت الجماهير تدفعه ناحية الباب تحمله دون مقاومة حتى تركته في ركن طرق أذنيه فيه لساعته صوت مدام زفيرين، وكانت تتكلم الفرنسية مع الشاب ذي الشعر الأشقر الذي أشار إليه البريطاني الغريب منذ نصف ساعة وتقول له: "إني أجازف بسمعتي، ولكن عليك فقط أن تذكر ذلك للبواب، وسيأذن لك بالدخول على الفور".

واعترض رفيقها قائلا: "ولكن لم تتحدثين عن مسألة الدين هذه؟".

فأجابت: "ويحك أتعتقد أني لا أعرف فندقي؟"

ومضت وهي متعلقة بذارع رفيقها، وأذكر هذا سيلاس موعده، وقال في نفسه "لعلي بعد عشر دقائق أكون سائرا مع سيدة في مثل جمال هذه السيدة، وقد تكون أحسن منها ملبسا، وقد تكون سيدة نبيلة وربما كانت ذات لقب".

ثم تذكر ما كان في الخطاب من خطأ في الهجاء ووجم قليلا، لكنه قال لنفسه "ربما كتبته خادمتها".

وكان قد بقى على الساعة المحددة بضع دقائق، فأخذ قلبه يدق بسرعة مزعجة، لكن الذي خفف وقعه عليه أنه ليس من المحتم أن يظهر نفسه، وكانت تمتزج عنده الجرأة والجبن في آن واحد، واتخذ طريقه إلى الباب عامدا في هذه المرة، مزاحما معارضا تيار الجمع الذي كان يتحرك في اتجاه مضاد لاتجاهه، ولعل هذه المقاومة قد أنهكت قواه، أو لعل الذي كان يسيطر على

ذهنه وقتئذ أنه لو استمر في نفس الاتجاه بضع دقائق لاختلفت حالته وتبدل هدفه، وهناك ابتعد مرة ثالثة ولم يقف إلا بعد أن وجد نفسه في مكان يستطيع أن يختبئ فيه على بعد أمتار قليلة من مكان اللقاء.

وهنا اضطربت نفسه ودعا ربه مرات عدة أن يساعده، فقد تربى سيلاس تربية دينية ولم يكن لديه الآن أقل رغبة في اللقاء المرتقب، ولم يمنعه من الهرب إلا خوف سخيف أن يظن الناس في رجولته نقصا، وتغلب هذا الشعور على كل الدوافع الأخرى فحال بينه وبين الهرب وإن لم يحمله على التقدم، ومرت عشر دقائق بعد الزمن المحدد، وبدأ يستولى عليه القلق، ودار ببصره نحو ركن البناء، ولم ير أحدا في مكان المقابلة، وجال بخاطره أن كاتبة الرسالة المجهولة قد قلقت وانصرفت، وامتلأ الآن قلبه بالشجاعة بمقدار ما امتلأ قبل بالجبن، وبدا له أنه مادام قد جاء إلى مكان اللقاء مهما كان متأخرا فلا يمكن أن يتهم بالجبن، وابتدأ الآن يظن الأمر كله مزاحا، وأخذ يثني على مهارته وقدرته على كشف المؤامرة وإحباط غرض مدبريها.

وتقدم بجرأة من ركنه مسلحا بهذه المشاعر، ولكنه لم يكد يتقدم خطوتين حتى وضعت يد على ذراعه، واستدر فرأى سيدة مهيبة الطلعة تلوح عليها ملامح الفطنة لكن نظرتها لم يكن فيها شيء من القسوة وقالت له:

"أرى أنك شديد الثقة بأنك قاعر النساء، فأنت تجعلهن ينتظرنك بدل أن تنتظرهن، لكنني كنت مصممة على لقائك، وإذا ما نسيت المرأة نفسها وخطت هي الخطوة الأولى فإنها تكون قد خلفت منذ زمن طويل كل كبريائها المزعوم".

وأخذ سيلاس بعظمة مراسلته وجاذبيتها ووقوعها فجأة في حبه، ولكنها ما لبثت أن جعلت الهدوء يعاوده، فقد كانت ظريفة رقيقة في سلوكها، أغرته بهذا السلوك على أن يمزح ويداعب، ثم مدحته وأسرفت في مديحه، وما هي إلا لحظات قضاها في اللهو والشراب حتى ظن أنه عاشق ولهان وأخذ يجهر بهذا الحب بأقوى الألفاظ.

ثم قالت:- "يا الله! لا أدرى هل يحق لي ألا آسف على هذه اللحظة رغم ما يفيض به قلبي من السرور حين أستمع إلى كلماتك، لقد كنت قبلا أقاسي الآلام وحدي، أما الآن أيها المسكين فسنتقاسمها معا، ولست صاحبة الأمر على نفسي، أستطيع أن أدعوك لزيارتي في منزلي، إذ تراقبني عيون غيورة، دعني أرى، إنني أكبر منك رغم أني أضعف، وإني وإن كنت أثق بشجاعتك وتقديرك لا بد أن أستعين بتجاربي في الحياة على ما فيه الخير لي ولك، أين تقيم؟"

فأخبرها أنه يسكن في حجرة مفروشة في فندق، وذكر اسم الشارع ورقم الفندق، وظهرت كأنما تفكر بضع دقائق تفكيرا مجهدا ثم قالت أخيرا:

"أرى أنك ستكون وفيا ومطيعا، أليس كذلك؟" فأكد لها سيلاس شدة إخلاصه ووفائه، فأكملت حديثها بابتسامة مشجعة "غدا مساء إذن يجب أن تبقى في غرفتك ولا تغادرها بعد الظهر، فإذا ما جاءك أصدقاء فاصرفهم في الحال، وانتحل لهم ما يتراءى من الأعذار، إن الباب يغلق في العاشرة على ما أظن؟"

فأجاب سيلاس: "بل قبيل الحادثة عشرة".

فتابعت حديثها قائلة: "في الحادية عشرة إلا ربعا ارتك المنزل، صح بالباب أن يفتح، وتأكد أنك لا تحادث البواب إذ ربما أفسد ذلك كل شيء، وأذهب مباشرة إلى الركن حيث تتقابل حدائق لوكسمبرج والشارع، وهناك ستجدني في انتظارك، وأنا واثقة من أنك ستعمل بنصيحتي بقضها وقضيضها، وأعلم أنك إذا ما خالفت أية نقطة صغيرة فيها فإنك ستسبب المرب الشديد لامرأة كل ذنبها أنها رأتك وأحبتك".

فأجاب سيلاس: "لا أدري أية فائدة من كل هذه التعليمات ..."

فصاحت قائلة: "أعتقد أنك بدأت تعاملني معاملة من له حق السيادة على ....".

ونقرت بمروحتها على ذراعه ثم قالت: "صبرا، صبرا، سيأتي ذلك على مر الزمن، فإن المرأة تحب أن تطاع أولا، وإن كانت فيما بعد تجد السعادة في أن تطيع، بالله أفعل ما طلبته إليك وإلا فلن يكون لي بك شأن". وأضافت بلهجة من رأى من فوره صعوبة جديدة: "حقا، أنني أفكر في الأمر الآن، لقد وجدت خطة أحسن من الخطة السابقة أقصى بها الزائرين: قل للبواب ألا يدخل عليك أحدا إلا شخصا قد يحضر في تلك الليلة مطالبا بدين، وتكلم بشيء من التأثر كأنك تخشى المقابلة حتى يحمل كلامك محمل الجد".

فقال ولم تخل لهجته من قليل من الاستياء: "أظنك تستطيعين أن تثقي أن في وسعي أن أحمي نفسي من الدخلاء".

فأجابت بفتور: "هذه هي الطريقة التي أحب أن يتم بها اللقاء، فأنا أعرف أنكم أيها الرجال لا تهتمون بسمعة النساء".

وخجل سيلاس وأطرق برأسه قليلا لأنه كان مزهوا أمام معارفه بالخطة التي دبرها من قبل.

وأضافت قائلة: "وأهم ما يجب عليك ألا تتحدث إلى البواب في أثناء خروجك".

فقال: "ولماذا؟ إن هذا يبدو لي أقل أهمية من جميع ما تلقيت من أوامرك"

فأجابت: "لقد كنت تشك في حكمة بعض أوامري الأخرى، وأنت الآن تراها جد واجبة، صدقني، إن لهذا أيضا فائدة، ستدرك ذلك فيما بعد، وماذا أظن أنا في عواطفك إذا رفضت مثل هذه التوافه في مقابلتنا الأولى؟."

وأتعب سيلاس نفسه في البحث عن تفسيرات واعتذارات، وفي خلال ذلك نظرت إلى الساعة وضربت يدا بيد في صيحة مكبوتة "يا الله، إن الوقت متأخر، ليس لدي لحظة أضيعها، ويل لنا معشر النساء، إننا عبيد، ماذا بقى لي أن أخاطر به من أجلك؟"

وبعد أن أعادت تعليماتها ومزجت ملاحظاتهما بالنظرات الساحرة ودعته واختفت بين الجموع الحاشدة.

وظل سيلاس طوال اليوم الثاني كله يداخله الشعور بأهمية اللقاء، لقد تأكد الآن أنها إحدى النبيلات، ولما حل المساء أطاع أوامرها بحذافيرها، وكان في منعطف حدائق لوكسمبرج في الساعة المحددة، ولم يرى هناك أحدا، فانتظر نصف ساعة تقريبا وأخذ يتفرس في وجه كل من يمر أو يتسكع قرب المنطقة، بل زار كل الأماكن المجاورة للشارع، ومر بكل أسوار الحديقة، لكنه لم يجد نبيلة جميلة ترمي نفسها بين ذراعيه.

وأخيرا بدأ يعود على كره منه إلى الفندق، وتذكر وهو في الطريق الكلمات التي سمعها من حديث مدام زفيرين والشاب الأشقر، فشعر بمزيد من القلق.

وقال في نفسه: "يبدو أن كل إنسان يكذب على بوابنا"

ودق الجرس، وفتح الباب، وجاء البواب بملابس النوم ليضيء له الطريق وسأله "هل خرج؟" فأجاب سيلاس بشيء من الحدة لأنه قد ساء أن رجاءه لم يتحقق "من تقصد؟"

فواصل البواب حديثه قائلا: "لم أره وهو يخرج، لكني أثق أنك دفعت له ما عليك، غننا لا نهتم في هذا المنزل بان يكون عندنا نزلاء لا يستطيعون أداء ما عليهم".

فأجاب الآخر: "أقصد الشاب القصير الأشقر الذي جاء يطالب بدينه، إنه هو الذي أقصده، ومن عساي أن أقصد غيره، وكان علي أن أطيع أمرك بألا أدخل غيره؟"

قال سيلاس: "رحمتك يا الله، طبعا إنه لم يجن".

فصاح البواب: "إني أعتقد ما أعتقده"، وحرك لسانه في شدقه حركة تنم عن الخبث.

فصاح سيلاس: "إنك وغد سافل"، وشعر انه قد اظهر كثيرا من الغلظة وأحس في الوقت نفسه بكثير من الأخطار التي تهدده، فاستدار ومضى يصعد الدرج مسرعا.

فصاح البواب: "ألا ترغب في ضوء".

لكن سيلاس أسرع أكثر من ذي قبل، ولم يقف حتى كان قد وصل الطابق السابع، ووقف أمام بابه، وهناك انتظر لحظة ليسترد أنفاسه.

وجالت بخاطره أسوأ النذر، وشعر بالخوف عند دخول الغرفة.

ولما دخلها في آخر الأمر ارتاح إذ وجدها مظلمة لم تمس ما فيها يد، وتنفس نفسا عميقا حين وجد نفسه في غرفته سالما، واعتزم أن تكون هذه آخر حماقاته كما كانت أولها، وكانت عيدان الثقاب على منضدة صغيرة بجانب السرير، وبدأ يشق طريقه في هذا الاتجاه، ولكنه حين تحرك بدأت شكوكه تتغلب عليه مرة أخرى، ولقد سر حين تعثرت قدمه في شيء ولم يجده إلا كرسيا، وأخيرا لمس الستائر، وعرف من موضع النافذة الذي كان ظاهرها قليلا أنه لا بد بجانب السرير، وأن ليس عليه إلا أن يعتمد عليه ليصل إلى المنضدة التي يبتغيها.

ومد يده، لكن ما لمسته لم يكن غطاء فحسب بل كان تحته شيء بهيئة رجل آدمية، وجذب سيلاس يده، ووقف لحظة مذهولا، وقال في نفسه:

"ماذا؟ ماذا يمكن أن يكون هذا؟" وأرهف السمع لكن لم يكن هناك صوت أنفاس، ومد أطراف أصابعه مرة أخرى بجهد كبير إلى الموضع الذي لمسه قبلا، ولكنه في هذه المرة قفز نصف ياردة ووقف ينتفض وقد جمد في موضعه من الرعب، فقد كان هناك شيء في السرير، ترى ماذا يكون؟ لم يكن يدري، لكن هناك شيئا بلا ريب.

ومضت بضع ثوان قبل أن يستطيع التحرك، ثم عثر على عدان الثقاب

بوحي غريزته، وأشعل شمعة وظهره إلى السرير، ولما توهج اللهب استدار حوله ببطء، ونظر إلى الشيء الذي خاف أن يراه، لقد تحققت أسوأ ظنونه، ولم يبق لديه شك، فقد كان الغطاء مشدودا فوق الوسادة، يظهر معارف آدمي يرقد دون حراك، ولما اندفع وأزاح الغطاء وجد الشاب الأشقر الذي رآه في الملهى في الليلة السابقة، وعيناه مفتوحتان، ولكنه لا ينظر إلى شيء، ووجهه منتفخ مسود، والدم ينحدر من منخاريه.

وصرخ سيلاس وهو يرتعش، ووقعت منه الشمعة، وسقط على ركبتيه إلى جانب السرير.

وأفاق سيلاس مما اعتراه من ذهول من جراء اكتشافه المروع على صوت دق متواصل على الباب، ومضت ثوان قبل أن يذكر موقفه، ولما هم بمنع أي إنسان من الدخول كان قد تأخر فوق ما يجب، إذ رأى الدكتور نويل في ثوب نوم طويل يحمل مصباحا يضيء محياه ويتلوى في مشيته، وفتح الباب ببطء وتقدم إلى منتصف الحجرة.

وبدأ يقول: "أظن أني سمعت صيحة وخفت ألا تكون بخير، فلم أتردد في هذا التطفل".

وظل سيلاس ووجهه ممتقع وقلبه يدق في خوف واقفا بين الطبيب والسرير، لكنه لم يطاوعه صوته فيجيب بكلمة واحدة.

وتابع الطبيب حديثه: "إنك في الظلام، ومع ذلك فلم تبدأ حتى في الاستعداد للنوم، إنك لن تستطيع أن تجعلني أكذب عيني، وإن وجهك لينبئ بجلاء أنك بحاجة إما إلى صديق أو طبيب فإيهما تريد؟ دعني أجس نبضك

فإن هذا كثيرا ما يدل دلالة صادقة على حالة القلب".

وتقدم سيلاس وقد تقهقر أمامه إلى الوراء، وأراد إمساكه من معصمه، لكن العبء الذي كان واقعا على أعصاب الأمريكي الشاب كان من الثقل بحيث لا يستطيع المقاومة، فتحاشى الطبيب بحركة مضطربة، وألقى بنفسه على الأرض واندفع في نوبة من البكاء.

وما أن رأى الدكتور نويل الرجل الميت على السرير حتى اسود وجهه وأسرع عائدا نحو الباب الذي كان قد ترك بعضه مفتوحا فأغلقه بسرعة بالمفتاح مرتين.

وصاح بسيلاس في صوت رفيع "قم، ليس هذا وقت البكاء، ماذا صنعت؟ وكيف وجد هذا الجسد في غرفتك؟ تكلم بصراحة إلى شخص ربما كان ذا فائدة لك. هل تظنني جئت لأقضي عليك؟ أم تظن هذه القطعة من الجسد الميت التي على وسادتك تغير شعور العطف الذي بعثته في نفسي؟ أيها الشاب الساذج، إن الفعل الذي يراه القانون الأعمى غير العادل جرما شنيعا مفزعا لا يكون له قط ذلك الأثر في عين من يحب، ولو أني رأيت صديقي الحميم يعود إلي غارقا في بحر من الدماء لما تغيرت عواطفي نحوه، انهض، إن الخير والشر أوهام باطلة، ومهما كانت ظروفك فهناك شخص إلى جانبك سيساعدك إلى النهاية"

وتشجع سيلاس بهذه العبارات فوقف على قدميه ونطق بصوت متهدج وأعانه الطبيب بأسئلته فاستطاع آخر الأمر أن يفضي إليه بكل الحقائق، لكنه أغفل ذكر الحديث الذي دار بين الأمير وجبر الدين، لأنه لم يفهم إلا

قليلا من مرماه ولم يدرك أن له أية صلة بالكارثة التي حلت به.

وصاح الدكتور نويل: "يا الله لقد وقعت في أيدي أخطر رجال في أوروبا أيها الشاب المسكين! أي شرك نصب لك فوقعت فيه ببساطتك؟ وفي أية هاوية تردت قدميك غير المحاذرة؟ هذا الرجل الإنجليزي الذي رأيته مرتين، والذي أعتقد أنه دبر المؤامرة لحمتها وسداها، هل تستطيع أن تصفه؟ هل كان شابا أو شيخا قصيرا أو طويلا؟"

لكن سيلاس لم تكن له في تلك اللحظة عين بصيرة فلم يستطيع أن يذكر إلا عموميات تافهة لا يستطاع إدراكه بها.

وصاح الدكتور في غضب: "إني سأجعل هذا الأمر جزءا من منهاج الدراسة في كل المدارس! ما فائدة العينين واللسان إذا لم يستطيع بها رجل أن يلاحظ أو يذكر ملامح عدوه! لو أنني أنا الذي أعرف كل مجرى أوربا قد رأيته لاستطعت التعرف عليه، واتخذت ذلك سلاحا أستطيع به حمايتك، نم هذه المقدرة فيك مستقبلا أيها الشاب المسكين فقد تجدها ذات فائدة كبيرة لك".

فأجاب سيلاس: "مستقبلا؟! أي مستقبل لي إلا حبل المشنقة؟"

وقال الدكتور: "إن الشاب عصر الجبن، وإن متاعب الرجل لتبدو في عينيه أحلك مما هي في الحقيقة! إني رجل شيخ لكني لا أفقد الأمل قط .."

فقال سيلاس: "وهل أستطيع أن أروي مثل هذه القصة لرجال الشرطة؟"

فأجاب الدكتور: "بالتأكيد لا! إني أرى الآن من المكيدة التي دبرت لإيقاعك أن حالتك لا أمل فيها من هذه الناحية، وستكون في عيني السلطات الصغيرة النظر – ستكون دون جدال – أنت المجرم، وتذكر أننا لا نعلم إلا جزءا من المؤامرة ولا شك أن المدبرين الآثمين قد دبرا ظروفا كثيرة أخرى ستبدو إذا شرع رجال الشرطة في التحقيق، وتساعد على إلصاق التهمة بك أكثر مما تساعد على براءتك".

فصاح سيلاس: "لقد ضعت حقا إذن".

فأجاب الدكتور نويل: "لم أقل هذا فإنني رجل حذر".

فاعترض سيلاس وأشار إلى الجثة: "لكن انظر إلى هذا الشيء الذي على سريري إني لا أستطيع له تفسيرا، ولا أستطيع التخلص منه، ولا أقدر أن أنظر إليه دون أن ينتابني الفزع".

فأجاب الدكتور: "الفزع؟ ملا إن هذا الساعة إذا ما سقطت من مكانها وتحطمت لم تعد في عيني إلا قطعة من آلة عجيبة خليقة بأن أبحثها بملقط، والدم إذا ما صار باردا راكدا لم يعد دما آدميا، واللحم إذا ما برد لم يعد ذلك اللحم الذي نبتغيه في أحبابنا ونحترمه في أصدقائنا، لقد فقد الجمال والجاذبية والرعب لما فقد روحه المنعشة.

عود نفسك أن تنظر إليه في هدوء وسكينة، وإذا ما نجحت خطتي فقد تضطر إلى أن تعيش بضعة أيام بجوار ذلك الذي يخيفك كثيرا الآن"

فصاح سيلاس: "خطتك؟ ما هي؟ قل لي بسرعة يا دكتور، فليس لدي من الشجاعة ما يجعلني أبقى حيا".

فاستدار الدكتور نويل دون أن يجيب، وبدأ يفحص الجثة ثم تمتم قائلا: "ميت تماما، وكما قدرت فإن جيوبه خالية، ثم والاسم منزوع من القميص، لقد أدوا عملهم بعناية وحيطة، ومن حسن الحظ أنه قصير القامة".

وتابع سيلاس هذه الكلمات في قلق بالغ، وأخيرا فرغ الطبيب من فحصه، فأخذ كرسيا وخاطب الأمريكي الشاب، بابتسامة وقال:

"منذ دخلت هذه الحجرة، ورغم أن أذني ولساني كانت كلها غير معطلة، لم أدع عيني تتكاسلان، ولقد لاحظت منذ قليل أن في ركن الحجرة شيئا، ذلك الشيء الذي يحمله بنو وطنك إلى أقطاب المعمورة، وأعني به هذه الحقيبة الضخمة، ولقد كنت حتى هذه اللحظة لا أفهم قط فائدة مثل هذا الحمل الثقيل، لكني بدأت الآن أدرك فائدته، فغني أرى بوضوح أن الغرض من مثل هذا الصندوق أن يحتوي جثة آدمية"

فصاح سيلاس: "لا شك في أن هذا ليس وقت المزاح".

فأجاب الطبيب: "إني جاد فيما أهدف إليه وغن كنت أعبر عنه بشيء من الفكاهة، وأول ما يجب أن نعلمه يا صديقي الصغير أن نخرج من هذه الخزانة كل ما تحتويه"

وأطاع سيلاس أمر الدكتور نويل ووضع نفسه تحت تصرفه، فأخرج من الصندوق كل محتوياته، فصارت كوما كبيرا على الأرض، ثم أمسك بجثة القتيل من قدميها وأسند الطبيب الكتفين، ورفعاها عن السرير وثبتاها بعد جهد في الصندوق الفارغ ثم أغلقت الحقيبة على ما فيها من متاع غريب، وربطها الطبيب بيده بينما كان سيلاس منهمكا في وضع ما أخرج منها في الأدراج والخزانات.

وقال الدكتور: "والآن قد خطونا الخطوة الأولى في طريق خلاصك، وفي الغد – أو على الأصح اليوم – لا بد أن تكون مهمتك هي إزالة شكوك البواب، ذلك بأن تؤدي له كل ما له عليك، ودع لي وأنت مطمئن تدبير ما يلزم لإنهاء المسألة بخير، والآن اتبعني إلى غرفتي أعطك منوما قويا ولكن لا خطر منه، لأنك في حاجة إلى الراحة مهما يكن ما يطلب إليك فعله.

وكان اليوم التالي أطول يوم في ذاكرة سيلاس، وبدا كأنه لن ينتهي، وقد أنكر نفسه من أصدقائه، وجلس في ركن وعيناه مثبتتان على الحقيبة الضخمة وهو غارق في أفكاره الحزينة. وانقلبت الآية الآن عليه إذ لاحظ أن المرقب قد فتح، وأنه مراقب دائما من حجرة مدام وفيرين، وأحزنه ذلك حتى اضطر في النهاية أن يسد الفتحة من ناحيته، فلما استراح من المراقبة قضى جزءا كبيرا من الوقت يذرف الدمع ويدعو الله.

وقرب المساء دخل الدكتور نويل الغرفة يحمل في يده مظروفين دون عنوان احدهما ضخم أما الآخر فيبدو أن ليس فيه خطاب، وقال وهو يجلس إلى النضد:

"سيلاس، لقد حان الوقت لأشرح لك خطتي، فغدا صباحا في ساعة مبكرة يعود الأمير فلوريزل – أمير بوهيميا – إلى لندن بعد أن أنفق بضعة أيام في الحفلات الراقصة بباريس، ولقد كان من حظي من وقت قريب أن أؤدي إلى الكولونيل جبر الدين رئيس إصطبلاته خدمة من الخدمات العادية التي تبيعها لي مهنتي، والتي لا يستطيع أي الطرفين أن ينساها، ولست بحاجة إلى أن أشرح لك طبيعة الظروف التي ألجأته إلي، وحسبي أن أقول إنني قد

صار لي من المعرفة به ما يجعله على استعداد لخدمتي في أي ظرف ملائم، ولقد كان من الضروري لك أن تصل إلى لندن دون أن تفتح الحقيبة، وكان يبدو أن إدارة الجمارك عقبة كأداء في هذه السبيل، لكني تذكرت أن متاع شخصية محترمة كالأمير لا يفحصها ضباط الجمارك مجاملة له، وقد تحدثت إلى الكولونيل جبر الدين في أن تضم الحقيبة إلى متاع الأمير ونجحت في الحصول على موافقته، فغدا إذا ذهبت قبل السادسة إلى الفندق الذي يقيم فيه فإن متاعك سيمر كأنه جزء من متاعه، وأنت نفسك سترحل كأحد أفراد حاشيته.

"يبدو لي وأنت تتكلم كأني قد رأيت فعلا الأمير جبر الدين، بل قد سمعت بعض المناقشة التي دارت بينهما في ذلك المساء في الملهى".

"ذلك أمر محتمل فإن الأمير يحب الاختلاط بكل الطبقات، وإذا ما وصلت إلى لندن فإن المسألة توشك أن تنتهي، ففي هذا الظرف المنتفخ خطاب لا أستطيع كتابة العنوان عليه، أما الظرف الآخر فإن فيه مكان المنزل الذي يجب أن تحمل إليه الصندوق، وهناك يؤخذ منك ولن يشغلك أمر ما بعد ذلك أبدا".

فقال سيلاس: "يا الله، أود لو صدقتك، لكن كيف أصدقك؟ إنك تبعث في نفسي بريقا من الأمل، لكني أسألك هل يستطيع عقلي أن يفهم مثل هذا الحل الغريب؟ كن أكثر كرما، ودعني أفهم أكثر من ذلك كنه ما تقصد".

وبدا كأن الطبيب قد أثر فيه هذه الرجاء وحز في نفسه فقال:

"بني، إنك لا تعرف مقدار ما في طلبك هذا من الصعوبة، لكني سأجيبك إليه، وسيكون من الغريب أن أرفض لك هذا الطلب بعد أن قدمت لك كل هذا.

أعلم إذا أنني رغم مظهري الهادئ الآن، ورغم ما يبدو علي من أني رجل مقتصد وحيد عاكف على الدرس، كان اسمي عندما كنت أصغر مني الآن يرن بين أخبث شياطين لندن وأشدهم خطرا، وبينما كنت في مظهري الخارجي موضعا للاحترام والتقدير، كانت قوتي الحقيقية في علاقاتي السرية المريعة الإجرامية، وإني أرسلك الآن إلى واحد من أولئك الذين كانوا يأتمرون بأمري ليخلصك من حملك.

لقد كان هؤلاء رجالا من مختلف الأمم والبلدان، يضمهم جميعا قسم ملزم، ويعملون لغاية مشتركة، وكان عمل الجماعة هو القتل، وأنا الذي يخاطبك الآن، ورغم ما يبدو علي من البراءة، كنت زعيم هذه الزمرة المروعة".

فصاح سيلاس: "ماذا؟ أو قاتل أنت؟ آنت رجل كانت صناعته القتل؟ هل أستطيع أن أضع يدي في يدك؟ وهل أنا محق في قبول خدمتك أيها الشيخ المجرم؟ هل تتآمر علي مع شبابي وحزني؟"

وضحك الدكتور في مرارة وقال: "إن من الصعب إرضائك يا مستر سكودا مور، لكني الآن أخيرك بين مصاحبة القاتل أو القتيل، فإن كان ضميرك حيا لا يستطيع قبول مساعدتي فقل ذلك، وسأغادرك في الحال، وفي وسعك منذ الآن أن تتصرف في الصندوق وما يحتويه بما يتفق وضميرك الحي".

فأجاب سيلاس: "إني آسف، كان يجب أن أذكر كيف عرضت في كرم أن تحميني، حتى قبل أن تقتنع ببراءتي، وإني ما زلت مستمعا إلى نصائحك شاكرا لك فضلك".

فأجاب الطبيب: "هذا حسن، وأرى أنك بدأت تتعلم بعض دروس التجربة".

فأتم الأمريكي كلامه قائلا: "وفي نفس الوقت ما دمت قد اعترفت بأنك تعودت مثل هذه الأعمال المزعجة، وما دمت تقول إن الرجال الذين توصيهم بي كانوا أعوانك وأصدقاءك، فهلا تستطيع نقل الصندوق بنفسك وتخلصني في الحال من وجوده الكريه؟".

فأجاب الطبيب: "بشرفي أني أقدرك تقديرا قلبيا، وإذا كنت تظن أنني لم أتدخل بما فيه الكفاية في شئونك فإني أعتقد مخلصا أنك مخطئ في اعتقادك هذا، فإما أن تقبل خدماتي كما أعرضها عليك، وغما أن ترفضها ولا تزعجني بعبارات الشكر التي لا فائدة منها، لأني لا أقدر اعترافك بفضلي أكثر من تقديري لذكائك.

وسيأتي وقت – إذا ما نجوت لتعيش أعواما في راحة وهدوء – تنظر فيه إلى كل هذه الأمور نظرة أخرى، وتخجل من سلوكك في هذه الليلة.

ولما أتم الطبيب كلامه قام من كرسيه، وأعاد تعليماته في اختصار ووضوح، وغادر الحجرة دون أن يدع لسيلاس أي وقت للسؤال.

وفي صباح اليوم التالي توجه سيلاس نفسه إلى الفندق حيث قابله الكولونيل جبر الدين بأدب، وتخلص منذ تلك اللحظة من الخطر العاجل

الذي يهدده من جراء الصندوق وما يحويه، ومضت الرحلة دون حادث رغم أن الشاب كان شديد الفزع حين سمع البحارة وحاملي السكة الحديد وهم يشكون من ثقل أمتعة المير ثقلا غير عادي، وسافر سيلاس في عربة الخدم إذا آثر الأمير فلوريزل أن يكون مختليا بابنه، وعلى ظهر الباخرة اجتذب سيلاس انتباه صاحب السمو بما كان يبدو عليه من حزن وكآبة، وبوقوفه يحدق في كومة الأمتعة لأنه كان لا يزال قلقا غير مطمئن على مستقبله.

وقال الأمير: "أرى شابا لا بد أن أمرا ما يحزنه".

فأجاب جبر الدين: "هذا هو الأمريكي الذي حصلت على إذنكم في أن يسافر في ربابكم".

فأجاب الأمير فلوريزل: "إنك تذكرني بأني كنت مقصرا في مجاملته".

وتقدم إلى سيلاس وخاطبه بلطف قائلا:

"لقد سرني يا سيدي الشاب أن استطعت أن أنفذ الرغبة التي أبديتها لي عن طريق الكولونيل جبر الدين، وأرجو أن تذكر على الدوام أنني يسعدني في أي وقت في المستقبل أن أؤدي لك خدمة أجل من هذه".

ثم سأل بعض أسئلة عن الحالة السياسية في أمريكا أجاب عنها سيلاس بتعقل وأدب.

وقال الأمير: "إنك ما زلت شابا، ولكني ألاحظ أنك أكبر جدا مما تقتضيه سنك، ولعل دراسات عميقة تستغرق انتباهك، وقد يكون في قولي هذا شيء من التطفل ولعلي أتعرض لموضوع مؤلم".

فقال سيلاس: "أن لدي في الحقيقة سببا يجعلني أنأس الرجال، فلم يقع برئ في موقف محزن كالذي وقعت فيه".

فأجاب الأمير فلوريزل: "لن أطلب إليك أن تجعلني موضع ثقتك! ولكن لا تنس أن توصية الكولونيل جبر الدين هي جواز مرور لا يخيب، وأنني لست فقط راغبا في خدمتك ولكني ربما كنت أكثر مقدرة من كثيرين غيري على ذلك".

وفرح سيلاس بهذا التلطف من هذه الشخصية العظيمة، لكن خواطره السوداء ما لبثت أن عادت إلى ذهنه، كأن جميلا يسديه أمير إلى رجل جمهوري لا يبدد مشاغله ومتاعبه.

ووصل القطار إلى "تشارنج كرس" حيث أظهر ضباط الجمارك احترامهم لمتاع الأمير فلوريزل كالعادة، وكانت أفخم العربات في الانتظار، ودفع سيلاس مع غيره إلى مقر الأمير، وهناك بحث عنه المولونيل جبر الدين وأعلن إليه أنه يسره إذا استطاع أن يؤدي خدمة أحد أصدقاء الطبيب الذي يكن له كل تقدير، وأضاف: "وأرجو ألا تجد شيئا من الأواني الصينية متكسرا، فقد أعطيت أوامر مشددة في طول الطريق بالمحافظة عليها". ثم أمر الخدم أن يضعوا إحدى العربات تحت تصرف السيد، وصافحه الكولونيل معتذرا بانشغاله بمتاع الأمير.

وفتح سيلاس الخطاب الذي يحوي العنوان ووجه الرجل ليمضي بالعربة إلى شارع "بوكس كورت" الذي يتفرع من شارع ستراند، وبدا كأن المكان ليس غريبا على الرجل إذ نظر مرتاعا وطلب إعادة الأوامر، وصعد سيلاس

يملأ قلبه الخوف إلى العربة الفخمة وسار في طريقه إلى ذلك المكان، وكان المدخل إلى "بوكس كورت" أضيق من أن يتسع لدخول العربة، فقد كان لا يتسع إلا لمرور شخص واحد، وعلى ناصية الشارع كان يجلس رجل قفز على الفور وتبادل مع السائق تحية مودة، وفتح الخادم الباب وسأل سيلاس: "إلى رقم ٣ إن سمحت".

وكان عسيرا على الخادم والرجل الذي كان جالسا أن يحملا الحقيبة بمساعدة سيلاس نفسه، وقبل أن توضع على باب المنزل المذكور روع الأمريكي الشاب إذ رأى جمعا من المتعطلين يلتفون حوله، ولكنه دق الباب بأعظم ما يستطيع من مظاهر الثبات، وأخرج المظروف الآخر لمن فتح له.

فقال هذا: "إنه ليس بالمنزل، لكن إذا تركت الخطاب ورجعت غدا مبكرا فإنني أستطيع أن أخبرك هل تستطيع زيارته ومتى تستطيع، هل ترغب في ترك الصندوق؟"

فصاح سيلاس: "بكل سرور، ولكنه ما لبث أن ندم على تسرعه، وأعلن في تأكيد أنه يفضل أن يعود بالصندوق إلى الفندق".

وتهكم الجمع على تردده هذا وأخذوا يرسلون وراء العربة ألفاظ السباب، وطلب سيلاس إلى الخدم وهو مجلل بالعار والفزع أن يرشدوه إلى مكان مريح هادئ قريب منهم، فأوصلوه إلى فندق كرافن ثم عادوا من فورهم وتركوه وحده مع خدم الفندق.

وكانت الغرفة الوحيدة الخالية على ما يبدو غرفة صغيرة يصعد إليها بأربعة أزواج من الدرج، وتطل على خلف البناء، وإلى هذه الصومعة حمل

الحقيبة أثنان من الحمالين وهما يتذمران ويشكوان، ولا حاجة إلى القول بأن سيلاس كان في أعقابهما وهما يصعدان يكاد ينخلع قلبه عند كل منحنى، فإن عثرة واحدة قد تقلب الصندوق على السلم، وتظهر محتوياته في البهو.

ولما وصل إلى الغرفة جلس على حافة السرير ليستريح من الجهد الذي بذله، لكنه ما كاد يطمئن في مكانه حتى شعر بالخطر، إذا رأى الحمالين بجانب الصندوق يهمان بفتحه.

فصاح سيلاس: "اتركاه! لن أحتاج إلى شيء منه طيلة وجودي هنا".

فزمجر الرجل: "كان أولى أن تتركه في البهو إذن، هاذ الشيء أثقل من الكنيسة، فأي شيء فيه؟ لست أدري، ولو أنه كله نقود لكنت أغنى مني".

فأعاد سيلاس الكلة في هياج مفاجئ "نقود! ماذا تعني نقود؟ ليس لدي نقود، وأنت تتحدث كالمأفون".

وأجاب الخدم وهم يتغامزون: "فليكن يا كابتن، لن يمس أحد نقود فخامتك، إنني أمين المصرف، لكن الصندوق ثقيل، وأود أن أشرب شيئا في صحة فخامتكم".

فناوله سيلاس فرنكين معتذرا إليه بانه يضايقه إذ يعطيه عملة أجنبية لأنه قد وصل توا إلى لندن، وأظهر الرجل شدة غضبه، وأخذ ينظر إلى يده وإلى الحقيبة، ثم ينقل النظر مرة أخرى من واحدة إلى أخرى، ثم رضى أخيرا أن يغادر الحجرة.

ولقد مضى يومان على الجثة وهي مخزونة في الصندوق، وما كاد

الأمريكي البائس ينفرد بنفسه حتى أخذ يشم الفتحات في عناية شديدة، لكن الجو كان باردا، ولذلك ظل الصندوق حافظا لسره الرهيب.

وأخذ كرسيا وجلس إلى جانبه، ودفن وجهه بين يديه، وطافت برأسه خيالات مزعجة، ذلك أنه إن لم يتخلص منه بسرعة فلا بد أن يكتشف أمره قريبا! وإذا خابت توصية الدكتور وهو وحيد في مدينة غريبة بلا أصدقاء أو معارف فإنه يضيع حتما.

وفكر في خططه الكاملة في المستقبل: لن يستطيع الآن أن يصبح البطل والخطيب في مسقط رأسه في بانجوز، ولن يستطيع كما توقع قبلا أن ينقل من منصب إلى آخر ومن مجد إلى مجد، وإنه ليشق عليه أن يفقد أمله في أن يكون رئيس الولايات المتحدة المنتخب، وأن يترك بعده تمثالا في أحدث صورة فنية يزيد متحف الكابتول في واشنطن، ها هو ذا الآن مقيد إلى الإنجليزي الذي ثني في الحقيبة، ولا بد أن يتخلص منه أو يتلاشى من مسرح المجد القومي.

ولست بقادر على نقل اللغة التي استخدمها هذا الشاب عن الطبيب وعن القتيل ومدام زفيرين وخدم الفندق وخدم الأمير وعن كل من كانت له صلة بخطه العاثر المروع.

ومشى خائفا ليتناول عشاءه في السابعة مساء، لكن هذه الحجرة الصفراء غمته، وبدت عيون الآخرين متسلطة عليه في شك، وظل عقله في أعلى مع الحقيبة الكبيرة.

ولما جاء الندل ليقدم إليه الجبن كانت أعصابه توشك أن تنهار حتى أنه

تزحزح في كرسيه فسكب بعض بقايا النبيذ على غطاء المائدة.

ولما فرغ من عشاءه عرض عليه الخادم أن يقوده إلى غرفة التدخين، ورغم انه كان يفضل أن يعود في الحال إلى كنزه الثمين فإنه لم يكن لديه من الشجاعة ما يستطيع به أن يرفض العرض، وأدخله الخادم إلى حجرة سوداء مضاءة بالغاز كانت – وما زالت – بهو الاستقبال في فندق كرافن.

وكان اثنان متراهنان يلعبان البلياردو ومعهما مراقب، وخيل إلى سيلاس لحظة أنه لم يكن في الحجرة سواهم، لكن عينيه وقعتا في النظرة الثانية على شخص يدخن في الركن القصي وعيناه تكسبانه مظهرا في غاية الاحترام والتواضع، وادرك في الحال أنه راى هذا الوجه من قبل، ورغم التبدل التام في الملابس فقد عرف أنه الرجل الذي كان جالسا في مدخل الشارع، والذي ساعده على حمل الحقيبة من العربة وإليها، فاستدار الأمريكي ببساطة وحذر ولم يتوقف إلا بعد أن أغلق عليه غرفة نومه بالمفتاح والمزلاج.

وظل طيلة الليلة فريسة لأبشع التخيلات، وهو يترقب بجانب الصندوق المملوء بالجسد الميت، وكان ظن الخادم أن الحقيبة ملأي بالذهب يسبب له إزعاجا جديدا، كما كان وجود الرجل الآخر – متخفيا – في حجرة التدخين مما يؤكد انه أصبح مرة أخرى محور مؤامرة.

ولما مضى بعض الوقت على انتصاف الليل دفعت الشكوك سيلاس إلى أن يفتح باب غرفة نومه ويتلصص في الممر، وكانت أضواءه خافتة إذ لم يكن فيه إلا مصباح واحد من مصابيح الغاز، ورأى عن بعد رجلا نائما على الأرض في ملابس خدم الفندق، واقترب سيلاي من الرجل على أطراف

أصابعه، وكان راقدا على جنبه وظهره، وذراعه اليمنى تخفي وجهه، وبينما كان الأمريكي منحنيا عليه أزاح النائم فجأة ذراعه وفتح عينيه، ووجد سيلاس نفسه مرة أخرى وجه لوجه أمام ذلك الرجل الذي صاح في مرح:

"مساء الخير يا سيدي".

لكن سيلاس احتار في الإجابة وعاد إلى غرفته في صمت.

وأنهكته التأملات طوال الليل فأخذته قبل الصباح سنة من النوم وهو على كرسيه مسندا رأسه إلى الصندوق، وكان نعاسه عميقا طويلا رغم هذا الوضع غير المريح فلم يستيقظ إلا في ساعة متأخرة على صوت طرق حاد على الباب، وهم بفتحه فوجد الخادم الذي سأله:

"أأنت السيد الذي مر أمس على البوكس كورت؟"

فأجاب سيلاس وهو مضطرب بالإيجاب.

فأضاف الخادم: "فهذه الورقة لك إذن".

وقدم إليه خطابا مغلقا، وفتحه سيلاس ووجد داخله هذه الكلمات "في الساعة الثانية عشرة".

وقد حافظ على الموعد وحمل الصندوق أمامه خدم أقوياء، وأدخل هو إلى غرفة فيها رجل جالس يتدفأ أمام النار وظهره إلى الباب، ولم يكف صوت هذا العدد من الأشخاص الذين دخلوا وخرجوا وصوت ارتطام الصندوق حين وضع على الأرض لأن يستلفتا انتباه الجالس، ووقف سيلاس ينتظر في عاصفة من الخوف حتى يهتم الجالس به ويدرك وجوده.

ومرت حوالي خمس دقائق قبل أن يستدير الرجل في تراخ وتبدو ملامحه، فإذا هو الأمير فلوريزل أمير بوهيميا.

وقال في شدة: "وهكذا يا سيدي استغللت أدبي؟ إنك تضم نفسك إلى أناس ذوي شأن، لا لشيء ألا لتتخلص من تبعة جرائمك، وإني أستطيع أن أفهم على الفور حيرتك حين حدثتك بالأمس.

فصاح سيلاس: "حقا إنني برئ من كل شيء إلا من سوء الحظ".

وأعاد على الأمير قصة مأساته كلها في جلاء وسرعة شديدة.

فقال صاحب السمو: "أرى أني أخطأت فما أنت إلا ضحية، وبما أني لن أعاقبك فثق اني سأفعل كل ما في وسعي لمساعدتك، والآن هيا إلى العمل، وافتح الصندوق في الحال ودعني أشاهد محتوياته.

وامتقع وجه سيلاس وصاح: "إني أخاف أن انظر إلى ما فيه".

فأجاب الأمير: "هراء! ألم تنظر إليه من قبل، إن هذا نوع من الرقة يجب مقاومته، غن رؤية شخص عليل ما زلنا نستطيع مساعدته يجب أن تؤثر في عواطفنا أكثر من رؤية رجل ميت اجتاز المرحلة التي نستطيع فيها معونته أو إيذاءه، حبه أو بغضه، امتلك أعصابك يا مستر سكودا مور". ولما رأى سيلاس ما زال مترددا أضاف: "لا أود أن أعطي صيغة أخرى لطلبي".

وأفاق الأمريكي الشاب كأنما كان يحلم، وحمل نفسه على كره منه شديد على أن يفك الأربطة ويفتح قفل الحقيبة الكبيرة، وكان الأمير واقفا إلى جانبه يراقبه في ملامح صارمة ويداه وراء ظهره، وكان الجسم متصلبا، وتكلف

سيلاس كثيرا من الجهد النفسي والعضلي ليحركه من مكانه ويكشف وجهه، وتقهقر الأمير فلوريزل في صيحة دهشة وألم "يا الله إنك لا تدري يا مستر سكودا أية هدية قاسية أهديتها إلي، غن هذا الشاب من حاشيتي، وأخ لأعز من أثق به من الأصدقاء، ولقد وقع في أيدي هؤلاء الرجال القساة الغادرين في أثناء قيامه بخدمتي" وتابع كلامه كأنما كان يتحدث لنفسه: "مسكين يا جبر الدين! ترى بأي ألفاظ أستطيع أن أخبرك بمصرع أخيك؟ وكيف أعتذر لنفسي بين يديك ويد الله عن المشروعات الواسعة التي أدت إلى هذه الميتة الدامية غير العادية، آه يا فلوريزل! فلوريزل، متى تتعلم الاعتدال الذي يتفق مع الحياة البشرية، ولا تغتر بالقوة التي تراها طوع بنانك؟" وصاح "القوة! من أقل قوة ممن يظن نفسه صاحب الحول والطول؟ إني أنظر إلى هذا الشاب الذي ضحيت به يا مستر سكودا، وأشعر بضآلة شأن الأمراء؟"

وتأثر سيلاس من هذه العاطفة، وحاول أن يتمتم بعض كلمات العزاء، وأجهش بالبكاء، لكن الأمير أثر فيه هذا الموقف فقام إليه وأخذ بيده وقال له: "املك نفسك، إن على كل منا أن يتعلم كثيرا، وسنكون في غدنا خيرا منا الآن بفضل ما حدث بيننا الليلة".

وشكره سيلاس في صمت ونظر إليه نظرة من يعترف له بالجميل.

وواصل الأمير حديثه قائلا: "اكتب إلى عنوان الدكتور نويل على هذه الورقة"

وقاده إلى نضد: "ودعني أنصحك إذا ما عدت إلى باريس أن تتجنب صحبة هذا الرجل الخطر، لقد مثل دور الرجل الكريم – هذا ما يجب أن

أعتقد – ولو كان شريكا في قتل هذا الشاب لما بعث بالجثة ليعني بها المجرم الحقيقي"

وأعاد سيلاس قوله في دهشة: "المجرم الحقيقي؟"

فأجاب الأمير: "نعم هو هذا". وهذا الخطاب الذي أرسلته العناية الإلهية إلى يدي لم يكن موجها إلا إلى المجرم نفسه وهو رئيس "نادي الانتحار" فلا تحاول أن تعرف عن هذه الأمور الخطرة أكثر مما عرفت، واحمد الله على نجاتك بأعجوبة، واترك هذا المنزل على الفور، إن لدي أمورا هامة وعلي أن أعد ما يلزم في الحال لهذه الجثة المسكينة التي كانت قبل شابا أنيقا كريما.

وانصرف سيلاس بعد أن حيا الأمير فلوريزل تحية شكر وخضوع واعتراف بالجميل، لكنه تأخر قليلا حتى رأى الأمير ينصرف في عربة فاخرة لزيارة الكولونيل هندرسون أحد رجال الشرطة، ولم تمنعه مبادئه الجمهورية من أن يرفع قبعته في رقة وحب للعربة المنصرفة، وفي نفس الليلة أخذ القطار عائدا إلى باريس.

يقول محدثي العربي: "هنا تنتهي قصة الطبيب والحقيبة الكبيرة"، وأحب أن أقول إن المستر سكودا مور قد بدأ يرتقي سلم الشهرة السياسية، وإن آخر ما وصلني من الأخبار يدل على انه عمدة بلدته.

# القبلة

للكاتب الروسي/ أنطون تشكوف(*)

١٨٦٠ – ١٩٠٤

في الساعة الثامنة من مساء اليوم العشرين من مايو كانت الست الفرق من المدفعية الاحتياطية في طريقها إلى معسكراتها، حين توقفت لقضاء الليل في قرية مستشكو، وفي أثناء الهرج والضباط مشغولون ببنادقهم، وآخرون قد تفرقوا في الميدان يستمعون لأوامر القيادة العليا، أقبل فارس في ثياب مدنية من وراء الكنيسة على ظهر مهر عجيب صغير الحجم فاتح اللون له رقبة جميلة وذيل قصير، يتخبط في جريه يمينا وشمالا، ويرمي رجليه في حركات عنيفة سريعة كأنما يهوى عليها سوط، ووقف الفارس أمام جماعة من الضباط وهو يرفع قبعته:

"إن صاحب السعادة الجنرال فون رابك صاحب هذه الضيعة يسره أن يدعوكم لتناول الشاي معه".

وتقهقر الحصان إلى ناحية، ورفع الفارس قبعته مرة أخرى، ثم استدار واختفى وراء الكنيسة بدابته العجيبة المنظر.

---

(*) ابن تاجر درس في جامعة موسكو وبدأ وهو طالب يكتب القصص القصيرة التي أذاعت شهرته، ويعد هو وجوجول أعظم الكتاب الروس الفكهين، وقد ترجمت مسرحياته وأهمها بستان الكرز، والأخوات الثلاث والعم فانيا إلى كثير من اللغات ومثلت بنجاح في كثير من البلاد، وقد ترجمت أولى هذه المسرحيات إلى اللغة العربية.

وزمجر بعض الضباط وهم عائدون إلى ثكناتهم وقالوا: "ما هذا السخف؟ يرغب المرء أن ينام فيجئ هذا الفون رابك ودعوته، غننا نعلم معنى هذه الدعوة".

وتذكر كل ضابط في الفرق الست حادثة وقعت لهم في العام الماضي خلال التدريب العسكري، حين دعاهم كونت كان ضابطا في المعاش ودعا معهم ضابط إحدى فرق القوزاق لتناول الشاي، وكيف احتفى بهم الكونت الكريم أعظم حفاوة وأصر على أن يقضوا الليل في منزله بدل أن يقضوه في الثكنات، وكان هذا ولا شك جميلا، ولم يكونوا يرغبون في شيء أحسن منه، غير أن الكونت كان شديد الاغتباط بصحبة الشبان، فظل حتى مطلع الشمس، وهو يثقل عليهم بالحديث عن ماضيه السعيد، ويقودهم من حجرة إلى أخرى ليريهم صوره الغالية، ولوحاته القديمة، وما لديه من الدروع النادرة، بل ويقرأ عليهم خطابات تلقاها من شهيرات النساء.

وكان الضباط المتعبون يستمعون وينظرون وهم في شوق عظيم إلى مضاجعهم، ويتثاءبون خفية وراء أكفهم، ولما تركهم مضيفهم في النهاية حاولوا عبثا أن يناموا فقد كان الوقت متأخر جدا.

ترى هل يختلف فن رابك عن ذلك؟ ومهما يكن من شيء فإن الضباط لم يكن لهم بد من أن يغتسلوا ويرتدوا ملابسهم ويذهبوا للبحث عن منزل صاحب المزرعة.

فلما وصلوا إلى الميدان الذي تقع فيه الكنيسة قيل لهم إنهم يستطيعون الوصول إلى النهر بطريق خلف الكنيسة، ثم يسيرون على الشاطئ حتى

يصلوا إلى حديقة صاحب المزرعة، وهناك ممر يؤدي إلى باب الدار، أو يسيرون في الطريق الذي يلتف في نصف دائرة حول مخازن محصولاته، فاختار الضباط الطريق الثاني.

وتساءلوا فيما بينهم في الطريق: "من هو هذا الفن رابك؟ أهو الرجل الذي كان قائدا للفرسان في بلفتا؟"

"لا، لم يكن اسمه فن رابك بل رابي فقط".

"ما أجمل الطقس!"

وعند أول مخزن للمحصولات انقسم الطريق قسمين، أحدهما مستقيم يختفي في ظلمة المساء، والآخر يؤدي إلى منزل صاحب الضيعة، واتجه الضباط إلى اليمين وقد خفضوا أصواتهم، وشاهدوا على جانبي الطريق المخازن الحجرية بأسقفها الحمراء، وكانت في ضخامتها وكآبتها تبدو كأنها ثكنات في مدينة ريفية.

وقال أحد الضباط: "هذه علامة طيبة يا سادة! إن كلب الصيد يتقدمنا وهذا يعني انه يشم رائحة شواء!"

وكان في مقدمة الجميع الملازم لوبتكو وهو طويل القامة عريض المنكبين، حليق الشارب، وكان في الخامسة والعشرين من عمره رغم أن وجهه المستدير الممتلئ لا يدل على ذلك، وكان يشتهر في كتيبته بقدرته على الإحساس بوجود نساء في مكان ما عن بعد، واستدار وقال:

"نعم، إني متأكد من وجود نساء في هذا المكان، إني أحس ذلك بالسليقة".

وعلى باب المنزل قابلهم فن رابك بنفسه، وكان رجلا وسيما في الستين من عمره يرتدي ملابس مدنية، وصافح الضباط وقال لهم إنه مسرور وسعيد برؤيتهم، ولكنه يرجو المعذرة إذ لم يدعهم لقضاء الليلة عنده، فإن شقيقته وأولادها قد حضروا، هم وأشقاؤه وبعض الجيران، ولهذا فإنه ليس لديه حجرة واحدة خالية.

وكان القائد هو اللطف مجسما، ولكن ظهر من ملامح وجهه أنه لم يكن شديد الاغتباط بضيوفه كذلك الكونت الذي لبوا دعوته في السنة الماضية، وأنه ما دعاهم إلا استجابة لداعي المجاملة، وبدا ذلك جليا حينما صعدوا على الدرج المغطاة بالأبسطة وهم يستمعون إلى مضيفهم ويرون الخدم يهرعون إلى إضاءة المصابيح في البهو والدرج، فقد شعروا أن في وجودهم مضايقة لمن في المنزل، فإذا كان قد اجتمع تحت سقف المنزل أختان وإخوة وجيران لعلهم جاءوا للاحتفال بحادث عائلي، فكيف يكون الأسرة مسرورة لمقدم تسعة عشر غريبا؟".

وعند باب حجرة الاستقبال حيث وقفت تستقبل الضيوف سيدة طويلة رشيقة وإن كانت كبيرة السن، ذات وجه بيضاوي، وحاجبين سوداوين، تشبه الإمبراطورة أوجيني، فرحبت بهم بابتسامة أنيقة واعتذرت لعدم استطاعتها دعوتهم للمبيت، وظهر من الابتسامة التي اختفت من وجهها في اللحظة التي استدارت فيها أن السيدة قد لقيت الكثيرين من الضباط في أيامها،

وأنها لم تعد تهتم بهم الآن، وأنها وإن دعتهم إلى منزلها وقدمت لهم اعتذارها لم تفعل هذا إلا لأن تربيتها ومركزها يتطلبان ذلك منها.

ولما دخل الضباط حجرة الطعام رأوا اثنى عشر رجلا وسيدة كبارا وصغارا يجلسون إلى ناحية من مائدة طويلة يشربون الشاي، وفي وسطهم شاب رفيع ذو شارب أحمر يتكلم الإنجليزية في صوت عال، ومن خلف الجماعة تبدو من خلال الباب غرفة ساطعة الضوء ذات أثاث أزرق فاتح.

وقال القائد بصوت عال متكلفا المرح:

"أيها السادة، غنكم من الكثرة بحيث يستحيل علي أن أتولى تقديمكم بعضكم لبعض، أرجو أن تقدموا أنفسكم دون كلفة".

وانحنى الضباط وجلسوا إلى المائدة وبعضهم يتكلف الرزانة، وبعضهم يتكلف ابتسامة، وكلهم يشعر بعدم الراحة، وخاصة الضابط ريابوفتش وهو رجل مستدير الكتفين يلبس منظارا على عينيه، ففي الوقت الذي اتخذ بعض رفاقه سيماء الجد وابتسم البعض الآخر قسرا كان وجهه وشاربه الذي يشبه شارب القط، ومنظاره تبدو، بل هو كله يبدو، وكأنه يقول "إني أشد ضباط السلاح حياء وتواضعا ..."

ولما دخل الحجرة وجلس إلى المائدة لم يستطيع أن يركز انتباهه في شيء بعينه أو وجه معين، فقد كانت الوجوه والملابس وزجاجات الخمر ونقوش الجدران، والبخار المتصاعد من الأكواب، تختلط في إحساس يربك ريابوفتش ويثير فيه الرغبة في إخفاء رأسه، وكان كمحاضر يواجه مستمعين لأول مرة – يرى الأشياء أمام عينيه ولكنه لا يدرك منها شيئا (وهذه الحالة التي يرى

فيها الشخص المرئيات دون أن يدركها تعرف عند الفيسيولوجيين باسم "العمى النفساني").

ولما أعتاد ما حوله بعد لحظة، بدأ ينظر يمينا وشمالا، ولما كان رجلا خجولا لم يعتد المجتمعات فقد راعته أولا جرأة معارفه الجدد الغريبة إذ رأى فن رابك وزوجته وسيدتين مسنتين وفتاة في رداء بنفسجي وشابا ذا حلة حمراء – عرف أنه ابن رابك الأصغر – رأى هؤلاء قد وزعوا انفسهم بين الضباط بمهارة كأنما نظموا الأمر من قبل، وبدئوا حديثا لم يستطع الضيوف إلا أن يشتركوا فيه، وقالت الفتاة ذات الثوب البنفسجي إن الحياة في المدفعية أسهل منها في فرقة الفرسان أو المشاة، بينما عارض هذا الرأي فن رابك وإحدى السيدتين العجوزين.

وبدأ النقاش ونظر ريابوفتش إلى الفتاة ذات الثياب البنفسجية وكانت تناقش موضوعا لا تعرف عنه شيئا ولا يهمهما في شيء، ولاحظ الابتسامات المصطنعة التي تتلاعب على وجهها.

واستدرج فن رابك وزوجته الضباط بمهارة إلى الحديث بينما كانت عيونهما ترقب بعناية زجاجات الضيوف وأطباقهم ليريا أنهم كلهم يأكلون ويشربون، وكلما شاهد ريابوفتش واستمع زاد إعجابا بهذه الأسرة غير المخلصة وإن كانت رائعة النظام.

وبعد تناول الشاي انتقل الضباط إلى حجرة الجلوس، ولم تخب فراسة الملازم لو بتكو فقد كان هناك الكثير من الفتيات والسيدات الشابات في الحجرة، ووقف الملازم الجسور إلى جانب فتاة جميلة في ثوب أسود وهو

ينحني برشاقة نحوها كأنما يرتكز على سيف خفي، ويبتسم ويحرك كتفيه مغازلا، ولا بد أنه كان يتحدث عن شيء تافه ممل، فقد نظرت الفتاة الجميلة إلى وجهه المستدير في تلطف وقالت دون اهتمام "أحقا؟!" وكان على الملازم – لو كان ذكيا – أن يدرك من ترديدها هذه الكلمة أنها لم تسر كثيرا من قوله.

وبدأ بعضهم يضرب على البيان دورا حزينا، فجعل ذلك الجو الحزين الذي يسبح من خلال النوافذ المفتوحة كل إنسان يذكر أنه في شهر مايو، وأن الجو جميل حقا، وأن منظر البنفسج والورد والحور يملأ الجو.

واستندر بابوفتش وهو واقع تحت تأثير الموسيقى والخمر التي احتساها على حافة النافذة يبتسم، وبدأ يتابع حركات السيدات، وبدا له أن شذا الورود والبنفسج والحور لا يأتي من الحديقة بل من وجوههن وثيابهن، ودعا نجل فن رابك فتاة نحيلة طويلة إلى الرقص، ودارا دورتين أو ثلاثا حول الحجرة، واندفع لو بتكو على الأرض الملساء إلى ذات الثياب البنفسجي، وخاصرها في وسط الحجرة ... وبدأ الرقص ووقف ريابوفتش إلى جانب الباب بين الرجال الذين لا يرقصون يتطلع، فلم يكن قد رقص في حياته، ولم يتح له أن يلف ذراعه حول خصر سيدة محترمة، وكانت فكرة أخذ رجل فتاة غريبة من خصرها أمام الجمع وتقديم كفته لها لتضع عليها ذراعها فكرة تسره بلا شك، لكنه لا يستطيع أن يتخيل نفسه في موضع مثل هذا الرجل.

ولقد أتى عليه وقت حسد فيه رفاقه على شجاعتهم وجرأتهم، وتفطير قلبه وهو يشعر أنه حيي، مستدير الكتفين، وأن له شاربا كالقط، لكنه ألف

ذلك على مر الأيام، وبينما كان يحملق في الذين يرقصون ويتكلمون بصوت عال، لم يعد يحسدهم، واطمأنت نفسه إلى حاله، وكل ما في الأمر انه كان يحس بشعور الحزن.

ثم تقدم فن رابك الصغير نحو الرجال الذين لا يرقصون، ودعا اثنين من الضباط إلى لعب البلياردو، فتتبعاه خارج غرفة الجلوس، ولما كان ريابوفتش لا يجد ما يعمله، وكان يرغب في أن يشارك بطريقة ما في الهرج، فقد اقتفى أثرهم، ومروا من غرفة الجلوس في ممر ذي جدار زجاجي ضيق، ثم في غرفة أخرى فلما أن دخلوا قفز ثلاثة من الخدم كانوا يغالبون النعاس على أريكة فيها، وبعد أن مروا في طائفة أخرى من الغرف دخلوا في النهاية غرفة البلياردو وبدأ اللعب.

ولم يكن ريابوفتش قد مارس أية لعبة سوى لعب الورق، فوقف إلى جانب المنضدة ينظر دون اهتمام إلى اللاعبين، وقد فكوا أزرار حللهم، وأمسكوا بالعصى، في أيديهم، وأخذوا يمشون وهم يمزحون ويصيحون بألفاظ غير مفهومة، ولم يعره اللاعبون انتباها، وكل ما في الأمر أنهم كانوا يعتذرون إليه في أدب إذا ما صدمه أحدهم بمرفقه أو مسه بعصاه، وما أن انتهى الدور الأول حتى مل موقفه، وظن أنه ليس مرغوبا فيه، فغادر غرفة اللعب قاصدا غرفة الرقص.

وحدثت له وهو في طريق عودته مغامرة صغيرة: فقد لاحظ وهو في منتصف الطريق أنه لا يسير في الاتجاه الصحيح، ذلك انه كان يذكر جيدا انه يجب أن يمر بالحجرة التي رأى فيها الخدم الناعسين، لكنه مر خلال ست

حجرات، وكأن الخدم قد اختفوا، ولما أدرك خطأه رجع قليلا ثم اتجه إلى اليمين، فدخل غرفة معتمة لم يذكر أنه مر بها في طريقه إلى حجرة اللعب، وتوقف لحظة ثم فتح بعزم أول باب صادفه، ووجد نفسه في غرفة مظلمة، وبدا له أمامه من خلال ثقوب في الباب ضوء ساطع، ومن خلف الباب أتت إليه نغمة محزنة مكبوتة، وكانت هذه الحجرة كحجرة الجلوس مفتحة النوافذ تظهر الحور والبنفسج والورود.

ووقف ريابوفتش في حيرة، وفي هذه اللحظة سمع وقع أقدام سريعة وحفيف ثوب وصوت سيدة ممتلئا بالعاطفة يهمس "أخيرا!"

والتفت ذراعان ناعمتان بضتان حول عنقه لم يكن يشك في أنهما ذراعا امرأة، ولامست خده وجنة دافئة، وفي نفس اللحظة سمع صوت قبلة، ثم صرخت المرأة صرخة، مكتومة وقفزت كما بدا لريابوفتش من الذعر مبتعدة عنه، ولقد أوشك هو أن يصيح واندفع نحو شعاع الضوء الذي كان يبدو من خلال الباب ...

ولما عاد إلى غرفة الرقص كان قلبه يدق دقات سريعة ويداه ترتعشان بشدة فأخفاهما وراء ظهره، وظل في اللحظات الأولى يتناوبه الخزي والذعر، وبدا له أن كل إنسان في الحجرة لا بد يعرف أنه قد احتضنته امرأة، وألقى نظرة قلقة على ما حوله، فلما اقتنع بأن كل من في الحجرة يرقصون ويتحدثون في هدوء كما كانوا، أطلق العنان لمشاعره ليستمتع بالإحساس الذي عرفه لأول مرة في حياته، لقد حدث له أمر عجيب، فقد خيل إليه أن عنقه الذي أحاطته منذ هنية ذراعان ناعمتان جميلتان مدهونان بالزيت،

وأحس على خده بجانب أذنه اليسرى حيث قبلته الفاتنة المجهولة ببرودة جميلة كأنها ناشئة من تبخر قطرات من زيت النعناع، وكلما واصل مسح هذه البقعة ازداد هذا الشعور قوة، وقد ملأه من قمة رأسه إلى أخمص قدمه شعور جديدة أخذ يتزايد شيئا فشيئا.. فقد كان يريد أن يرقص ويتحدث ويجري في الحديقة ويضحك.. ونسى أنه مستدير الكتفين وأنه لا شكل له "كما قالت سيدة تعرفه في مناقشة مع سيدة أخرى طرقت سمعه مصادفة". ولما مرت به زوجة فن رابك وجه إليها ابتسامة عريضة طيبة جعلتها تقف وتنظر إليه في دهشة، فقال لها وهو يثبت نظراته "إني أحب منزلكم حبا جما!" فابتسمت زوجة القائد وقالت له إن المنزل كان من قبل منزل والدها، ثم مضت تسأله هل والده على قيد الحياة؟ وكم مضى عليه في الخدمة؟ ولماذا يبدو نحيفا؟ وما إلى ذلك ... وبعد أن تحدثت إليه برهة مضت وبدأ ريابوفتش يبتسم ابتسامة أعرض وأرق من ذي قبل، ويتخيل نفسه محوط بأكرم قوم..

ولما جلس إلى المائدة أخذ يأكل ويشرب بطريقة آلية كل ما يقدم إليه، ولم يسمع كلمة واحدة مما كان يقال، وبدأ يفكر في تفسير مغامرته الغريبة، فقد كانت مغامرة تجمع بين الغرابة والجدة لكنها لا يصعب تفسيرها، فلعل فتاة أو سيدة قد واعدت رجلا في الحجرة المظلمة، ولما كانت في حالة قلق عصبي بسبب طول الانتظار، فإنها حسبت ريابوفتش فارسها، وخاصة لأنه وقف في تردد لما دخل الغرفة كما لو كان هو الآخر يتوقع لقاء احد ... على هذا النحو فسر ريابوفتش القبلة التي تلقاها ...

لكنه أخذ يفكر وهو يحدق في وجوه النساء من حوله .. "ترى من هي؟ لا بد أنها شابة فالعجائز لا يواعدون الرجال! ولا بد أنها راقية، لقد أحسست

ذلك من حفيف ثوبها ومن رائحتها ومن صوتها ...".

ووقعت نظرته على الفتاة ذات الثوب البنفسجي وبدت له جد جذابة، فقد كانت جميلة الذراعين والكتفين، ينم وجهها عن ذكاء، وصوتها جميل، ونظر إليها وقرر أنها هي ولا أحد سواها فاتنته المجهولة ... لكنها ابتسمت في تكلف وأدارت أنفها الطويل، فبدت له كبيرة السن، ثم نقل نظره إلى الفتاة الجميلة ذات الرداء الأسود، لقد كانت هذه أصغر من الفتاة الأولى وأكثر بساطة، وكانت لها لمتان جميلتان وطريقة جذابة في احتساء ما في كأسها، لذلك أراد ريابوفتش أن تكون هي الفتاة المجهولة التي لقيها، لكنه سرعان ما وجد أن ملامحها شديدة الاستواء، فنقل انتباهه إلى جارتها وقال وهو يقلب الأمر في نفسه:

"لا يستطيع الإنسان أن يحكم، فلو أخذنا كتفي الفتاة ذات الثياب البنفسجية وذراعيها، وأضفنا لهما وجنتي هذه الفتاة الجميلة وعيني تلك التي تجلس إلى يسار لوبتكو فإننا ...."

وسم في خياله صورة للفتاة التي قبلته، صورة اشتهاها لكنه لم يجدها فيمن كن حول المائدة.

وبعد العشاء وقد امتلأ الضيوف بالطعام والشراب، شكروا مضيفهم واستأذنوا في الانصراف، واعتذر القائد وزوجته مرة أخرى لعدم استطاعتهم دعوتهم للمبيت.

وقال صاحب البيت: "لقد سعدت بلقائكم يا سادة" قالها مخلصا هذه المرة (لأن الضيوف الراحلين يعاملون بحفاوة أكثر من القادمين)، وأضاف

"سعيد حقا! وآمل أن تمروا بنا وأنتم عائدون دون تكليف كما تعلمون، أي طريق ستسلكون؟ هل تركبون؟ إن لم تكونوا عائدين راكبين فاذهبوا بطريق الحديقة فهو أقرب كثيرا"

وخرج الضباط إلى الحديقة التي بدت لهم – بعد أن كانوا في الضوء الساطع والصخب – شديدة الظلمة والسكون، ومشوا إلى الباب صامتين، لقد كانوا أنصاف سكارى، مرحين مغتبطين، لكن الظلمة والسكون قد جعلاهم واجمين مفكرين.

ولا ريب في أنهم كانوا يقولون في أنفسهم ما كان يقول ريابوفتش في نفسه: هل يكون لهم يوما من الأيام ما لرابك، منزل عظيم وأسرة وحديقة؟ وهل يتاح لهم أن يدعوا ضيوفا ولو في غير إخلاص ويسكروهم ويمتعوهم؟

ولما اجتازوا المدخل الرئيسي بدأوا يتكلمون ويضحكون كلهم ما دون سبب، وكانوا الآن يسيرون في الطريق الذي يؤدي إلى النهر، ويجري على حافة الماء ملتفا حول الشجيرات، تظلله أشجار الصفاف، وكان المار لا يبصر الشاطئ والطريق إلا بصعوبة، وكان الشاطئ الآخر تلفه الظلمة عن آخره، وكانت تلتمع في الماء المظلم هنا وهناك النجوم المنعكسة فيه، ولم يكن في وسع من يرى مياه النهر أن يحكم أنه ينحدر بقوة إلا من طريقة ارتجافها وتحركها، وكان الهواء راكدا وكانت بعض الديكة المتناومة تصيح من الضفة الأخرى، وكان عندليب على شجيرة يملأ الجو شدوا غير عابئ بالضباط، ووقف أحدهم إلى جانب الشجيرة وهزها لكن العندليب استمر في الغناء.

وصاحت أصوات: " يا له من متسول شجاع! ها نحن أولاء نقف بجانبه فلا يعبأ بنا ذلك الخبيث".

ثم بدأ الممر آخر الأمر في الصعود، وعند الكنيسة انتهى إلى الطريق العام، وهنا جلس الضباط ليدخنوا ويستريحوا من عناء التصعيد في التل، وبدا ضوء أحمر خافت من الضفة الأخرى، ولما لم يكن لديهم ما يقضون فيه وقتهم فقد أخذوا يفكرون هل هو نار معسكر، أو نور من نافذة، أو شيء غير هذا وذاك؟ ...

وحملق ريابوفتش هو الآخر في الضوء، وبدا له كأنه يبتسم له ويشير إليه، كأنه يعلم بسر القبلة.

ولما وصلوا إلى المعسكر خلع ريابوفتش ملابسه من فوره وأوى إلى فراشه، وكان معه في نفس الخيمة لوبتكو والملازم مرسليكوف، وهو شخص هادئ صموت كان يعد رجلا مثقفا، ويقرأ دائما صحيفة رسول أوربا The Messenger of Europe وهي مجلة كان يحمل نسخة منها أينما ذهب، وخلع لوبتكو ملابسه، وأخذ يذرع الحجرة من أقصاها إلى أقصاها في قلق، ثم أرسل تابعه بطلب خمرا، وذهب مرسليكوف إلى فراشه بعد أن وضع إلى جانبه شمعة ثم غطى وجهه بصفحات المجلة.

وقال ريابوفتش وهو يحدق في السقف الداكن "إني لأعجب من تكون؟" وكان عنقه لا يزال كأنما بلله زيت، وكان لا يزال يشعر بالبرودة الشبيهة بتبخر عطر النعناع حول فمه، واستعرضت مخيلته صور كتفي الفتاة ذات الثوب البنفسجي وذراعيها، وخذي الفتاة الجميلة ذات الثوب الأسود

وخصرها وملابسها وجواهرها، وحاول أن يركز انتباهه في هذه الصورة لكنها كانت تتراقص أمام عينيه وتبدو ثم تختفي، حتى إذا ما أقفل عينيه وتلاشت هذه الصور سمع وقع الأقدام المسرعة وحفيف الثوب وصوت القبلة، وتملّه شعور طاغ من الفرح، ولما أسلم نفسه للاستمتاع بهذا الشعور سمع الجندي يعود ويقول إنه لم يجد خمرا، وتضايق لوبتكو وبدأ يذرع الحجرة من جديد.

وقال وهو يقف جنبا إلى جنب سرير ريابوفتش وحينا بجانب سرير مرسليكوف: "أليس مغفلا؟ لا بد أنه أحمق ومغفل حين يخفق في الحصول على الخمر، ماذا؟ إنه لمجرم".

فقال مرسليكوف دون أن يرفع نظره عن صفحات الجريدة: "إنه لا يستطيع بطبيعة الحال أن يجد خمرا في هذا المكان"

فقال لوبتكو وهو مصر على رأيه: "لم تعتقد ذلك؟ إني أراهنك على أي شيء أني سأجد خمرا ونساء أيضا، وسأذهب في هذه اللحظة، وتستطيع أن تسميني ما شئت من الأسماء إن أخفقت."

وقضى وقتا طويلا في ارتداء ملابسه ولبس حذاءيه، ثم أشعل لفافة وخرج دون أن ينبس بكلمة أخرى، وتمتم وقد وقف في الممر: "رابك، جرابك. لا بك! أحس بأني لا أستطيع الذهاب وحدي، لعنه الله عليه، ريابوفتش ألا تأتي معي لنقوم بجولة؟.

فلما لم يأته جواب رجع وخلع ملابسه في بطء وآوى إلى فراشه.

وتحسر مرسليكوف ورمى جريدته وأطفأ الشمعة، وتمتم لوبتكو وهو يدخن لفافة في الظلام "نعم"

وجرر يابوفتش الأغطية على رأسه، وبدأ وهو يلف نفسه يضم الصور المتناثرة التي تسبح في مخيلته بعضها إلى بعض، لكنه أخفق في أن يصل منها إلى نتيجة، وسرعان ما غط في النوم، وآخر ما في ذهنه أن إنسانا قد عطف عليه وأسعده، لقد أضيف شيء طيب مبهج إلى حياته رغم أنه شيء لا معنى له، ولم يبارحه هذا الخاطر حتى في منامه.

ولما استيقظ كان ما أحسه من وجود شيء من الزيت على رقبته، وشعور البرودة الناشئة من تبخر النعناع حول شفتيه، قد فارقه، لكن شعور البهجة ظل يملأ قلبه، وأخذ ينظر في نشوة إلى حديد النوافذ، وقد غمرتها الشمس في شرقها بأشعتها الذهبية ويستمع إلى ضجة الطريق، وكانت مناقشة عالية تدور تحت نافذته، وذلك أن قائد بطاريته لبدتسكي الذي لحق بالفرقة تواكان يتحدث إلى جندي بأعلى صوته متأثرا في ذلك بعادته، إذ أنه لم يتحدث في حياته بصوت منخفض.

وصاح القائد "وماذا بعد هذا؟".

"وقد أصيبت جولو بشكا يا جناب الرئيس حين كانت تلبس حذاءها، ووضع الجراح لها بعض الجير والخل، وفي الليلة الماضية يا جناب الرئيس سكر الميكانيكي وارتجف وأمر بالملازم أن يحبس".

وأخبره الجندي أيضا أن كاربوف نسى الحبال الجديدة لأنابيب الاحتكاك، ونسى أوتاد الخيام، وأن الضباط قد قضوا الليلة عند القائد فون رابك، وبدت لحية لبدتسكي الحمراء من النافذة خلال الحديث، ونظر بعينيه القصيرتي النظر إلى وجوه الضباط الناعسة وحياهم وسألهم "هل كل شيء على ما يرام؟"

فأجاب لوبتكو وهو يتثاءب" لقد جلط النير الجديد كاهل الحصان المسرج" فتنهد القائد وسكت لحظة ثم قال بصوت عال:

"كنت أفكر في زيارة السكندرا افجرافوننا فلا بد أن أزورها، وداعا سألحق بكم قبل المساء".

وبعد ربع ساعة بدأت الفرقة تسير في طريقها، ولما مروا بمخازن فن رابك نظر ريابوفتش إلى المنزل، كانت الستائر لا تزال مسدله، وما من شك في أن الجماعة لا تزال نائمة، وأنها هي أيضا كانت نائمة – الفتاة التي قبلته بالأمس – وجهد أن يتصورها وهي نائمة هناك النافذة المفتوحة في غرفة نومها، والأغصان الخضراء تطل منها، وهواء الصباح المنعش ومنظر الحور والبنفسج الورد، والسرير، ومقعد عليه ثوبها الذي كانت ترتديه بالأمس، وخفاها، وساعة على المنضدة، كل هذه الأشياء رآها واضحة جلية، لكن الشيء الوحيد الذي أراد أن يراه وهو ملامح الفتاة وابتسامتها الحلوة الحالمة كان ينزلق من مخيلته كما ينزلق الزئبق من بين الأصابع.

وما إن ساور نصف ميل حتى استدار خلفه، وكانت السكينة الصفراء والمنزل والنهر والحديقة تسبح في ضوء الشمس، وبدا النهر جميلا بشاطئيه الأخضرين الجميلين وانعكاسات السماء، والبقع الصفراء من ضوء الشمس، ونظر ريابوفتش مرة أخرى إلى القرية وتملكه شهور بالحزن، كأنه قد خلف وراءه شيئا قريبا إليه عزيزا عليه.

وفي الطريق لم تكن تطالع العين إلا المناظر المألوفة التي لا تثير الاهتمام، فعلى اليمين كانت حقول الشعير والذرة والغربان القافزة، وإلى الأمام الغبار

وأقفية الرجال، وإلى الخلف الغبار نفسه ووجوههم، وفي مقدمة الصفوف أربعة جنود بمدافعهم هم طليعة الفرقة، ووراءهم رجال الموسيقى، وكان رجال الطليعة والموسيقى كأنهم يسيرون في موكب جنازة، وبين الحين والحين يخالفون النظام الموضوع فيتقدمون كثيرا، وكان ريابوفتش مع فرقته الخامسة يرى أمامه أربع فرق.

إن منظر الجنود، وهم يسيرون في صف طويل مثقلين بأحمالهم، ليبدو لغير الجندي منظرا طريفا مسليا، فهو يصعب عليه أن يفهم لماذا يحتاج مدفع واحد لمثل هذا العدد من الرجال؟ ولماذا يلزمه العدد من الخيل لتجره؟ لكن هذه الأشياء كانت من الأمور المألوفة لريابوفتش، فأصبحت تافهة لا طرافة فيها، لقد عرف منذ سنوات لم يركب جندي ضخم إلى جانب الضابط أمام كل فرقة مدفعية وإلى جانب سائقي العجلات التي تسير في المؤخرة، وكان يعلم لماذا تسمى الجياد الأمامية "الجياد المسرجة" والخلفية "الجياد المقودة" وكان يجد هذا كله مملا للغاية، وكان يركب على إحدى العربات جندي معفر الظهر بتراب الأمس، وعلى رجليه واق، وكان ريابوفتش يعرف فائدة هذا الواقي ولا يرى فيه شيئا غريبا، وكان كل واحد من الفرسان يركب جواده بطريقة آلية وتراه من حين إلى حين يصيح بفرسه أو يضربه بالسوط، ولم تكن المدافع من الجمال بحيث تلفت النظر، وكانت على ظهور الراحلين أكياس من الخيش مملوءة بالشوفان، وكانت المدافع نفسها تزينها علب الشاي وحقائب الجنود وأجربتهم، فتبدو كأنها حيوانات أليفة تحيطها لسبب ما خيول ورجال، وكان يسير إلى جانب كل مدفع ستة من حاملي البنادق وهم يلوحون بأسلحتهم ووراءهم غيرهم من الطليعة، ثم مدافع أخرى كلها في

الكآبة كسابقتها، ووراء الثانية تأتي الثالثة ثم الرابعة ثم ضابط وهكذا، وكانت في الفرقة ست كتائب، ولكل كتيبة أربعة مدافع، وكان الموكب يمتد نصف ميل في الطريق، وفي النهاية جاء قطار من العربات، وبالقرب منها حمار يمشي وقد نكس رأسه، وكان هذا الحمار قد أحضره قائد الفرقة من تركيا.

وحدق ريابوفتش في الأعناق التي أمامه والوجوه التي خلفه، ولو كان في يوم آخر لأغمض عينيه وحاول النعاس، لكنه الآن أطلق العنان لأفكاره الجديدة البهيجة، ولما بدأت الفرقة في السير حاول أن يقنع نفسه أن حادثة القبلة إن هي إلا مغامرة صغيرة مضحكة لا يمكن حملها على محمل الجد، لكنه سرعان ما نحى المنطق جانبا وأطلق العنان لأحلامه .. فتخيل نفسه في حجرة الجلوس في منزل رابك إلى جانب فتاة تشبه التي كانت في ثوب بنفسجي، والأخرى ذات الثوب الأسود، فلما أغمض عينيه خيل إليه أنه إلى جانب الفتاة العجيبة ذات الملامح المبهمة الجذابة، وقد تكلم إليها في الخيال واحتضنها وقربها إلى صدره، وتخيل نفسه ذاهبا إلى الحرب تاركا إياها، ثم تخيل عودته وتناول العشاء مع زوجته وأولاده.

وكان القائد يصيح قبل النزول من فوق كل تل "إلى الضوابط" فيصيح هو الآخر "إلى الضوابط" وهو يخشى في كل لحظة أن تقطع هذه الصيحة تسلسل أحلامه وتنقله إلى عالم الحقيقة.

ومروا ببيت ريفي كبير، فأطل ريابوفتش من فوق السور على الحديقة، فطالع عينيه طريق طويل مستقيم مزين بالحصباء الصفراء ومزروع بالبتولا ... فتصور وهو في نشوة الحالم أقداما نسائية دقيقة تمشي في الممر الأصفر،

وسرعان ما عادت إلى مخيلته فجأة صورة الفتاة التي قبلته – الفتاة التي لم يستطيع أن يتخيل صورتها بالأمس عند العشاء – وانطبعت هذه الصورة في ذهنه ولم تفارقه بعدئذ.

وفي منتصف النهار سمع أمر في صوت عال بين ضجيج الصفوف "أيها الضابط .. انتباه" ورأوا قائد الفرقة في عربة يجرها جوادان أبيضان، ووقف إلى جانب الكتيبة الثانية وصاح صيحة لم يفهمها أحد، فتقدم إليه بضعة ضباط من بينهم ريابوفتش.

فسأل القائد وهو يغمز بعينيه المحمرتين: "كيف تسير الأمور؟ هل أحد مريض؟"

ولما تلقى الجواب فكر قليلا ثم التفت إلى أحد الضباط وقال:

"إن سائق عربة مدافعك الثالثة قد خلع غطاء ساقه وعلقها في مقدمة العربة فعاقبه" ثم رفع عينيه إلى ريابوفتش وواصل حديثه قائلا:

"إن مؤخر سرجك أطول مما يجب".

وبعد أن ألقى بضع ملاحظات متعبة استدار إلى لوبتكو وهو يبتسم وسأله "ما سبب حزنك اليوم يا ملازم لوبتكو؟ أمن أجل مدام لوبوخوفا، أيها السادة إن لوبتكو حزين من أجل مدام لوبوخوفا!"

وكانت مدام لوبوخوفا سيدة طويلة بدينة تربي سنها على الأربعين، وكان القائد الذي يميل إلى السيدات البدينات مهما تكن سنهن يعتقد أن أذواق جميع الضباط تتفق مع ذوقه، وابتسم الضابط احترام، وسر القائد من فكاهته

التافهة، فضحك بصوت مرتفع، ومس ظهر السائق، وحيا مودعا، ومضت العربة في طريقها.

وقال ريابوفتش في نفسه: "إن هذا الأمر، وإن بدا كأغرب الأحلام بعيدا كل البعد عن التصديق، يحدث في كل آن". ونظر إلى سحابة التراب التي أثارتها عربة القائد ثم قال: "إنما شيء عادي ويحدث لكل إنسان ... هذا القائد مثلا لا بد أنه قد أحب، وهو الآن زوج وله أولاد، والضابط باشتر أيضا قد تزوج وأحب ولا ريب، رغم أن له عنقا قبيحا وليس له خصر! وسلمانوف رجل فظ كأنه من التتار لكنه كانت له واقعة حب انتهت بالزواج، ولا فرق بيني وبين هؤلاء، وسألاقي نفس المصير إن عاجلا وإن آجلا .."

وأفاضت عليه هذه الفكرة، فكرة أنه رجل عادي، وأن حياته عادية، سعادة وشجاعة، واطلق العنان لخيالاته وصورها، وصور سعادتها معها كما يجب أن تكون.

ولما وصلت الفرقة إلى مقرها واستراح الضباط في الخيام جلس ريابوفتش ومرسليكوف ولوبتكو حول صندوق يتناولون العشاء، وكان مرسليكوف يأكل ببطء وهو يقرأ مجلة "رسول أوربا" الموضوعة على ركبتيه، وكان لوبتكو لا ينقطع عن الحديث، ويدأب على ملأ كأسه بالخمر، أما ريابوفتش الذي كانت تختلط في عقله أحلام اليوم الطويل فكان يشرب في صمت، وبعد الكأس الثالثة ضعف وانتشى ولم يستطع أن يقاوم رغبته في أن يقص على رفاقه عواطفه الجديدة.

فبدأ يقول في لهجة حاول ألا تنم عن اهتمامه وقلقه:

"حدثت لي حادثة مضحكة عند آل رابك، لقد ذهبت إلى غرفة البلياردو كما تعلمون ..." وبدأ يقص قصة القبلة في تفصيل، ودهش إذ لم يستغرق سردها إلا وقتا قصيرا – دقيقة على الأكثر – وكان يظنها تستغرق الليل بأكمله، ولما كان لوبتكو كذابا جريئا بطبيعته لا يصدق أحدا، فقد نظر إلى ريابوفتش بابتسامة الشك، ورفع مرسليكوف حاجبيه وقال وهو يرفع عينه عن الجريدة:

"حادثة غريبة ولا ريب، أترمي سيدة بنفسها في أحضان رجل دون كلمة؟ لا بد أن الفتاة عصبية. أظن ذلك ..."

فوافق ريابوفتش على ذلك وقال "نعم ولا ريب"

وبدأ لوبتكو يقول "لقد حدثت لي حادثة شبيهة بها، كنت مسافرا إلى كوفنا في العام الماضي في الدرجة الثانية، وكانت العربة مزدحمة بالناس ولم يكن النوم مستطاعا، فأعطيت قارض التذاكر نصف روبل، فأخذ متاعي وقادني إلى عربة النوم واستلقيت وتغطيت بملاءة .. وكانت الظلمة حالكة كما تعلمون.

وفجأة أحسست بشخص يلمس كتفي، وتصل أنفاسه إلى وجهي، وأخرجت يدي ولمست مرفقا .. وفتحت عيني، ولعلكم لا تصدقوني إن قلت لكم إني وجدته امرأة! لها عينان سوداوان وشفتان قرمزيتان وأنف يتنفس حنانا، وصدر ناهد ...

فقاطعه مرسليكوف في هدوء "يمكنني أن أفهم أن صدرها كان ناهدا لكن كيف رأيت شفتيها في الظلام؟".

فبدأ لوبتكو يتهكم ويضحك لافتقار مرسليكوف إلى الخيال، وتضايق ريابوفتش وغادر الصندوق واستلقى على فراشه وعاهد نفسه على ألا يفضي إلى أحد بأسراره مرة أخرى.

وبدأت حياة المعسكر، وتوالت الأيام المماثلة، وكان ريابوفتش طول الوقت يفكر ويشعر ويتصرف كما يفعل الرجل العاشق، وفي كل صباح حين يحضر له الجندي إناء الاغتسال ويصب الماء البارد على رأسه، كان يتذكر أن شيئا حلوا ثمينا قد طرأ على حياته، فإذا بدأ رفاقه يتحدثون عن الحب والنساء كان يقترب منهم وتبدو عليه سيماء جندي يسمع قصة معركة خاض غمارها، فإذا ما قام الضباط تحت إمرة لوبتكو بغزوات غرامية في القرية، كان ريابوفتش يشترك فيها، ولكنه كان يشعر بالألم ويلوم نفسه ويفكر في أن يطلب إليها الغفران ... وفي أوقات الفراغ أو إذا ما جفاه النوم بالليل حين يحبس الرغبة في تذكر أيام طفولته وأبيه وأمه وكل ما هو مقرب إليه عزيز عليه، كان دائما يفكر في منتشكو، والحصان الغريب ورابك وزوجته التي تشبه الإمبراطورة أوجيني، والغرفة المظلمة والثقب المضيء في الباب ...

وفي الحادي والثلاثين من أغسطس عاد من المعسكر، ولم تكن عودته مع كل الفرقة بل كانت مع كتيبتين فحسب، واشتاق مرة أخرى إلى رؤية الحصان العجيب والكنيسة وأسرة رابك المتصنعة والغرفة المظلمة، وكان صوت داخلي طالما خدع المحبين يؤكد له أنه سيلقاها، وبدأ يعجب كيف يحييها وماذا يقول لها، ترى هل نسيت القبلة؟ وإذا ما حدث أسوأ الفروض ولم يرها فإنه على أي حال سيسير في الغرفة المظلمة ويتذكر ..

وقبل الغروب بدت في الأفق الكنيسة المعهودة والمخازن البيضاء، ودق قلب ريابوفتش دقا سريعا ولم يعد يسمع ما يقوله الضابط الذي يركب قريبا منه، ونسي كل شيء، وحملق في شوق عظيم إلى النهر وهو يلتمع من بعد، وإلى سطح المنزل، وإلى برج الحمام، وإلى الحمام نفسه وهو يتلألأ في ضوء الشمس الغاربة.

ووصلوا إلى الكنيسة واستمع إلى أوامر القيادة العليا وهو يتوقع في كل لحظة أن يرى الفارس الذي يدعوهم إلى بيت القائد لتناول الشاي، لكن الأوامر انتهت وأسرع الضابط إلى القرية ولم يأت الفارس بعد ...

وقال ريابوفتش في نفسه: سيعلم رابك بمجيئنا من الفلاحين ويرسل إلينا .. ودخل الكوخ وهو يعجب لم أوقد رفاقه الشموع ولم يعد الجنود الطعام؟ وشعر بالحزن، واستبقى نائما، ثن استيقظ ونظر من النافذة ليرى هل الفارس قادم، لكنه لم ير فارسا مقبلا، فاستلقى مرة أخرى، ولم يستطيع احتمال قلقه، فمضى بعد قليل إلى الشارع واتخذ طريقه إلى الكنيسة، وكان الميدان الذي فيه الكنيسة مظلما مهجورا، وكان ثلاثة من الجنود واقفين معا في صمت على حافة التل، فلما راوا ريابوفتش بهتوا وأدوا التحية فردها وبدأ يصعد التل من الطريق المعهود.

وعلى الضفة الأخرى كانت الشمس في لون قرمزي فاتح، وأشرق القمر، وكانت امرأتان تتحدثان بصوت عال وتقطعان أوراق الكرنب من حديقة المطبخ، وأبصر وراء هذه الحديقة بعض الأكواخ ... وكان منظر هذه الضفة كما كان في شهر مايو، فقد كان هناك الممر والشجيرات والصفصاف

المطل على الطريق، ولم ينقصه إلا صوت العندليب الصغير الجريء ورائحة الحور والعشب القصير.

واقترب ريابوفتش من الحديقة ونظر خلال بابها، وكان داخلها مظلما ساكنا، وكانت جذور بعض أشجار البتولا القريبة تبدو لعين الناظر هي وجزء من الطريق. أما الباقي فكان كتلة من الظلام، وانصت ريابوفتش بانتباه وحدق في الظلمة لكنه بعد أن ظل يراقبها نصف ساعة ولم يسمع صوتا أو يرى ضوء ارتد عائدا.

ووقف عند النهر، وكان يلتمع أمامه في الظلام كوخ استحمام القائد وقطعة من القماش معلقة على سور الجسر الصغير، ومضى إلى هذا الجسر لغير سبب ووضع يده ومس القماش .. وحدق في النهر .. وكان تيار النهر يجري سريعا، وكان خرير الماء يسمع حين يصطدم بقوائم كوخ الاستحمام، وكان القمر ينعكس قرب الشاطئ الأيسر كبيرا أحمر، والأمواج الصغيرة تسبح من فوقه فتطيل الصورة وتقسمها إلى أجزاء كأنما تود أن تحملها إلى مدى بعيد.

وغرق ريابوفتش في أفكاره وقال وهو يحدق في الماء يجري بسرعة "كم كان ذلك سخيفا .. كم كان سخيفا ... كم كان هذا كله سخيفا ..."

والآن ولم يعد ينتظر شيئا بدت له قصة القبلة وقلة صبره وآلامه المبهمة وتصوراته في ضوء الحقيقة، ولم يعد يبدو له غريبا أنه لم ير فارس القائد وأنه لن يلقى الفتاة التي قبلته خطأ إذ ظنته شخصا آخر، بل بدا له أن التقاءها به هو الأمر الغريب ...

وجرى الماء إلى جانبه، ولكن أحدا لا يدري إلي أين يجري ولم يجري؟ لقد كان يجري كذلك في شهر مايو، لقد بدأ من مجرى صغير ثم صب في نهر عظيم ثم في البحر، ومن البحر علا في السماء ثم نزل مطرا، والآن ربما كان الماء الذي يمر به هو نفسه الذي رآه في مايو لم؟ لماذا؟ وبدت له الدنيا كلها والحياة نفسها فكاهة كبيرة سخيفة لا معنى لها، ورفع عينيه عن الماء ونظر إلى السماء وتذكر مرة أخرى كيف أن الأقدار في صورة امرأة مجهولة قد داعبته على غير انتظار، وتذكر أحلامه وما تراءى له من صور في الصيف، وبدت له حياته تافهة بائسة خالية من البهجة ...

ولما عاد إلى المعسكر لم يكن أحد من زملائه فيه، وأخبره الجندي أن الضباط قد ذهبوا كلهم إلى القائد "فونترابكين" الذي أرسل لهم فارسا يدعوهم إليه ...

وسرى شعور من الفرح إلى قلب ريابوفتش دام لحظة قصيرة، لكنه كبته في الحال وكأنما أراد أن يعاند القدر الذي عامله هذه المعاملة القاسية، فمضى إلى فراشه بدلا من أن يذهب إلى بيت القائد.

## رسالة من الدار الآخرة

**للكاتبة الأمريكية/ إدث وارتن ١٨٦٢** (*)

وقفت شارلوت أشبي على درج منزلها وقد خيم الظلام فطغى على ضياء عصر أيام مارس البهيجة، وكانت شوارع المدينة تفيض مرحا وحياة، ولكنها ولت ظهرها عن هذا كله ووقفت هنيبه في الرحبة العتيقة ذات الأرض الرخامية قبل أن تضع المفتاح في القفل، وكانت السجف المنسدلة على مصراعي الباب تحجب الأنوار عن داخل الحجرة فلا يستطيع الإنسان أن يتبين ما فيها مفصلا.

وقد كانت في أثناء الشهور الأولى من شهور زواجها بكنث أشبى تتوق إلى أن يعود زوجها في تلك الساعة إلى بيتهما الهادئ القائم في شارع قد هجره من زمن طويل رجال الأعمال والحياة الجديدة، وكان يثيرها ويهز مشاعرها على الدوام ما تراه من فرق عظيم بين صخب الحياة وضجيجها في نيويورك وأنوارها المتلألئة البراقة وما تزدحم به طرقاتها من حركة سريعة ثقيلة على النفس مؤلمة لها، وما فيها من مباني ضخمة بساكنيها، وحياة سريعة وعقول نشطة وثابتة، بين ذلك كله وبين هذا المأوى المقدس الذي تسميه مسكنا، فها هي ذي قد وجدت أو خيل إليها أن قد وجدت في

---

(*) من أشهر كاتبات المسرحيات والقصص القصيرة الأمريكيات وتمتاز بقدرتها العجيبة على خلق الجو الملائم لمسرحياتها وقصصها وعلى إظهار البواعث الكامنة وراء أعمال أشخاص رواياتها، وهي من أجل ذلك في بارعة كتابة القصص التي تنطوي على تيارات روحية كالقصة التالية.

قلب هذه العاصفة الهوجاء جزيرتها الصغيرة الهادئة، كانت هذه هي الحال في الأشهر الأولى، أما في الأشهر الأخيرة فقد تبدل كل شيء، وأضحت إذا أرادت أن تدخل دارها ترددت كثيرا وهي على درج المدخل، وكان لا بد لها أن ترغم نفسها على الدخول إرغاما.

واستعادت في ذاكرتها وهي واقفة في ذلك المكان منظر الدار من داخلها، الردهة وعلى جدرانها الصور القديمة، والدرج الشبيهة بالسلم الخشبي، ومكتبة زوجها الرثة عن شمالها وقد ملئت بالكتب وقصبات التدخين والكراسي الساندة القديمة التي تبعث على التفكير، وما أشد ما كانت تحب هذه الحجرة! وعادت إلى ذاكرتها في الطابق الأعلى صورة حجرة استقبالها الخاصة التي لم تتغير فيها منذ وفاة زوجة كنث الأولى من أثاثها أو سجفها، لأن الأسرة لم تجد من المال ما يكفي لتغيير الأثاث وهذه السجف، ولكن شارولت قد اتخذتها حجرة استقبال لها بتغيير مواضع أثاثها، وإضافة بعض الكتب إلى محتوياتها، ومصباح ونضد لوضع المجلات الجديدة عليه، وكانت شارلوت – حتى في أثناء زيارتها الوحيدة لمسز أشي الأولى تنظر إلى ما حولها نظرة حسد بريئة، وتشعر بأن هذه الحجرة هي التي تحب أن تكون لها، وها هي ذي رغبتها قد تحققت منذ عام كامل، وأضحت الحجرة ملكا لها تفعل فيها ما تشاء – وكانت هي الحجرة التي تعود إليها مسرعة وقت الغسق في أيام الشتاء والتي تجلس فيها بجوار المدفأة تقرأ ما تحب من الكتب أو أمام المكتب تجيب عما يأتيها من الرسائل، أو تصلح كراسات أبناء زوجها حتى تسمع وقع أقدامه وهو عائد إلى منزله.

وكان بعض الأصدقاء يزورونها أحيانا، ولكنها كانت في أكثر الأحيان

تقضي وقتها بمفردها، وكانت هذه العزلة أحب شيء إليها لأنها طريقة أخرى لوجودها مع كنث تفكر فيما قاله لها حينما افترقا في الصباح وتتخيل ما سيقوله حين يصعد الدرج فيجدها بمفردها، فيضمها بين ذراعيه.

أما الآن فإنها قد استبدلت بهذا كله التفكير في شيء واحد لا غير — ذلك هو الخطاب الذي قد نجده أو لا تجده على نضد الردهة، ولم يكن عقلها يتسع للتفكير في شيء غير هذا الخطاب حتى تتأكد من أنه على النضد أو ليس عليه.

وكان هذا الخطاب ذا شكل واحد على الدوام — فكان غلافه مربعا ذا لون رمادي كتب عليه بأحرف كبيرة لكنها غير واضحة "حضرة المحترم كنث أشبي".

وقد أدهشها من أول الأمر أن يكتب إنسان بهذا الخط الكبير وأن تكون حروفه مع ذلك غير واضحة إلى هذا الحد، فقد كان العنوان يكتب على الغلاف، وكأن صاحبه لا يجد ما يكفي من المداد، أو كأن يد الكاتب أضعف من أن تقوى على الضغط على القلم، وكان من الأمور العجيبة الأخرى أن الكتابة، وغن كانت أقواسها أشبه بكتابة الذكور، فإنها بوجه عام أشبه بكتابة الإناث، وبعضها لا يستطاع تمييز جنس كاتبها على الإطلاق، أما الكتابة التي على الغلاف الرمادي فلم يكن ثمة شك في أنها كتابة أنثى رغم قوتها وكبر حروفها، لم يكن يكتب على الغلاف شيء سوى اسم المرسل إليه دون أن يذكر مع الاسم عنوان أو يوضع عليه طابع بريد كأن الخطاب يسلم باليد، ترى أي يد هي التي تسلمه؟ وما من شك في أن الخطاب كان

يوضع في صندوق المنزل، ولعل الخادم كانت تخرجه منه بعد أن تغلق مصاريع الأبواب والنوافذ وتضيء الأنوار، ومهما تكن الطريقة التي يصل بها فإن شارلوت كانت في كل مرة تجده على النضد في المساء بعد أن تظلم الدنيا.

وكانت حين تفكر في الخطاب تفكر فيه بصيغة المفرد فتقول "هو" لأن ما وصل من الخطابات إلى المنزل كان على الدوام متماثلا في مظهره، وغن كان قد وصل منها منذ زواجها عدد ليس بقليل – سبعة على وجه التحقيق، وبفضل هذا التشابه امتزجت الخطابات كلها في عقلها حتى أضحت خطابا واحدا تعبر عنه كلمة "هو".

وقد وصل أول هذه الخطابات يوم أن عادت هي وزوجها من رحلة سافرا فيها لقضاء شهر العسل – تلك الرحلة التي سافرا فيها إلى جزائر الهند الغربية ثم عادا إلى نيويورك بعد غيبة دامت أكثر من شهرين، فلما دخلت المنزل مع زوجها بعد أن مضى من هذه الليلة الأولى أكثرها – لأنهما تناولا العشاء في بيت والدته – رأت هذه الظروف الرمادي وحده على نضد الردهة، ووقعت عينها عليه قبل عين كنث، وكان أول ما جال بخاطرها هو تفكيرها في أنها رات تلك الكتابة من قبل، ولكنها لم تستطع أن تستعيد في ذاكرتها المكان الذي رأتها فيه، ولم يكن في هذه الذكرى من الوضوح أكثر مما يكفيها لتعرف الخط كلما طالع عينيها ن ذلك المظروف الشاحب، ولكنها في هذا اليوم الأول بعد عودتهما لم تكن لتشغل بالها بالتفكير في هذا الخطاب لولا أنها كانت من قبيل الصدف تنظر إلى زوجها حين وقع نظره عليه، وقد حدث ما حدث وقتئذ بسرعة البرق – فقد رأى الخطاب، فمد يده إليه ورفعه أمام عينيه القصيرتين النظر لكي يحل رموز الكتابة الغير

الواضحة، وسحب من فوره ذراعه التي كانت من قبل في ذراع شارلوت، واتجه نحو الضوء وأدار ظهره إليها، وانتظرت هي – انتظرت لعلها تسمع منه صوتا أو صراخا، وانتظرت أن يفض هو غلاف الخطاب، ولكنه لم يفعل بل وضعه خلسة في جيبه دون أن ينبس ببنت شفة، ثم تبعها إلى المكتبة، وجلسا معا بجانب النار، وأشعلا لفافتي تبغ، وظل هو صامتا ورأسه ملقى على مسند كرسيه وهو غارق في أفكاره، وعيناه تتطلعان إلى الموقد، ثم مسح بيده جبهته وقال: "ألم يكن بيت أمي أشد حرارة من المعتاد في هذه الليلة؟ إن رأسي يكاد يتحطم من شدة الصداع، أيسوؤك أن آوي إلى فراشي الآن؟"

هذا ما حدث في المرة الأولى، ومن ذلك الوقت لم تكن شارلوت معه حين يتسلم الخطاب، فقد كان هذا الخطاب يجيء إلى المنزل عادة قبل أن يأتي هو من محل عمله، وكانت هي تتركه حيث هو وتصعد إلى الطابق العلوي من المنزل، على أنها حتى إذا لم تره فإنها كانت توقن أنه قد تسلمه، وذلك لما كان يبدو على وجهه من تغير شديد حين يلقاها – وقلما كان يلقاها في تلك الليالي قبل أن يجلسا حول مائدة العشاء، وما من شك في أنه كان يريد أن يختلي بنفسه ليتدبر في أمر الخطاب أيا كان ما يحتويه، وكان حين يلتقي بزوجته بعد وصوله يبدو كأنه قد كبر عما كان قبل عدة سنين، وكأنه قد فارقته شجاعته وحيويته، وكأنه لا يكاد يحس بوجود زوجته إلى جانبه، وكان في بعض الأحيان يظل صامتا بقية الليل، فإذا ما نطق بشيء كان ما ينطبق به عادة هو أن يوجه بعض النقد لطريقة ترتيبها المنزل، أو يعرض عليها بعض التغيير في إدارته، أو يسألها وهو مضطرب الأعصاب ألا ترى أن مربية جويس صغير السن طائشة، أو أنها هي نفسها تعني على الدوام ببطرس فتلفه لفا

جيدا بملابسه قبل خروجه إلى المدرسة لأنه ضعيف الجسم وسريع التأثر بتقلبات الجو.

وكان يعود إلى ذاكرتها في هذه الأوقات ما نصحها به أصدقاؤها حين خطبت إلى كنث أشبي فقد قالوا لها: "إنك ستتزوجين رجلا أرمل كسير القلب، وتتعرضين بذلك لكثير من الخطر، إنك تعرفين أن الزي أشبي كانت تسيطر عليه كل السيطرة".

فكانت تجيبهم مازحة: "قد يسره أن تتبدل حاله بعض الشيء فيستمتع بقسط من الحرية". ولقد كانت في قولها هذا صادقة، فلم تكن في حاجة إلى أن يقول لها أحد في الأشهر الأولى من زواجها إن زوجها كان سعيدا بها، ولما أن عادا من شهر العسل الطويل قال هؤلاء الأصدقاء أنفسهم: "ماذا فعلت بكنث؟ إنه يبدو أصغر مما هو بعشرين عاما"، فكانت في هذه المرة تجيبهم في مرح وفي غير مبالاة: "أظن أني أخرجته من محزه".

ولكن الذي كان يلفت نظرها بنوع خاص، بعد أن بدأت هذه الخطابات الرمادية تصل إلى يديه، لم يكن محاولته أن يوجه النقد إليها — وكان يبدو لها على الدوام أنه يفعل هذا على الرغم منه — بل كان نظرات عينيه حين يلقاها بعد أن يتسلم أحد هذه الخطابات، لم تكن هذه النظرات تنم عن كره لهابل إنها لم تكن تنم حتى عن عدم مبالاة بها، وإنما كانت نظرات رجل طال ابتعاده عن حوادث الأيام العادية، حتى إذا عاد ما ألف من أحوال العالم بدت له هذه الأحوال غريبة عنه.

وهذا هو ما كان يعنيها أكثر من تنقيبه عن أخطائها.

ولقد أدركت من أول الأمر أن الخط الذي كتب به ما على الغلاف خط امرأة، ولكنها لم تربط بين هذه الرسائل الغامضة العجيبة وبين أية عاطفة سرية إلا بعد زمن طويل، ذلك أن ثقتها بحب زوجها لها، وبانها تملأ فراغ قلبه وحياته، كانت أكبر من أن تسمح لهذه الأفكار أن تجول بخاطرها، وخيل إليها أن هذه الرسائل التي لم تبعث في نفسه على ما كان يبدو لها شيئا من الغبطة العاطفية كانت موجهة إليه بوصفه محاميا أكثر مما كانت موجهه إليه بوصفه شخصا عاديا، واكبر الظن أنها جاءته من عملية متعبة – وكثيرا ما قال لها إن النساء عميلات متعبات على الدوام – لا تريد أن تفض رسالاتها أمينة سره، ومن أجل ذلك كانت ترسلها إليه في منزله، فإذا صح هذا فإن هذه السيدة تكون عميلة متعبة للغاية، إذ حكمنا على ذلك بما تحدثه رسائلها من الأثر في نفسه، يضاف إلى هذا أنه لم ينطق أمام شارلوت في ساعة من ساعات انبساطه بكلمة واحدة تنم عن ضيق صدره بهذه المرأة التي لا تفتأ تنغص عليه راحته من أجل قضية خسرتها، لقد أفضى هو إلى شارلوت ببعض معلومات تكاد تكون من أسرار المهنة – وغن لم يبح لها طبعا بأسماء من تخصهم أو بتفاصيل قضاياهم، أما كل ما يتصل بهذا الخطاب فإنه لم يبح لها عنه بكلمة واحدة، بل طوى عليه صدره.

على أنه قد يكون في الأمر احتمال آخر، وهو ما يطلق عليه الناس من قبيل التطرف "ارتباكات قديمة" ولقد كان لشارلوت أشبي مثل هذه الارتباكات من قبل، ولم تكن تجهل دخائل قلوب الناس، وكانت تعرف أن الرجال والنساء كثيرا ما يتورطون في سن الشباب في صلات تؤدي فيما بعد إلى هذه الارتباكات القديمة، ولكنها تذكرت أنها حين تزوجت كنث أشبي لم

يشر أحد من أصدقائها إلى احتمال وجود "ارتباكات له قديمة" بل قالوا لها: "لقد ذللك أمامك الصعاب، ونحن لم تر كنث ينظر إلى امرأة أخرى من يوم أن رأى إلزي كوردر، وقد كان طوال سنى زواجه بها أشبه بالمحب غير السعيد منه بالزوج القانع المستريح، ولن يسمح لك بأن تحركي مقعدا من مكانه أو تغيري موضع مصباح، ومهما فعلت فسيوازن في عقله بينه وبين ما كانت تفعله إلزي لو أنها كانت في مكانك".

لكن هذه النذر لم يتحقق منها شيء على الإطلاق إذا استثنينا ارتيابه القليل أحيانا في مقدرتها على تدبير شئون الأطفال، وهو ارتياب بددته شيئا فشيئا بفكاهتها الظريفة، وبما أظهره الأطفال من حب شديد لها، وقد وقع هذا الرجل الأرمل المسكين الذي قال عنه أقرب أصدقائه إنه لا شيء يحول بينه وبين الانتحار بعد وفاة زوجته الأولى إلا انهماكه في الأعمال الخاصة بمهنته – وقع هذا الرجل بعد عامين من وفاتها في حب شارلوت جورس، فتودد إليها وخطبها، ثم تزوجها وقضى معها شهرا في بعض البلاد الاستوائية، ولقد ظل من ذلك الوقت لم ينقص حبه لها عما كان عليه في تلك الأسابيع البهيجة الأولى، وكان قبل أن يعقد زواجه عليها قد كشف لها صراحة عن حبه الشديد لزوجته الأولى، وعما اعتراه من اليأس بعد موتها المفاجئ، ولكنه حتى في ذلك الوقت لم يكن يتحدث إليها وهو كسير القلب، ولم يكن يفترض أن الحياة غير كفيلة بان تبدد أحزانه وتعيد إليه مباهجه، وعاش معها من ذلك اليوم عيشة بسيطة طبيعية، وأقر لها بانه كان من بداية الأمر يأمل أن يكشف له المستقبل عن متع جديدة، ولما عادا بعد زواجهما إلى المنزل الذي قضى فيه مع زوجته الأولى اثنتى عشرة سنة كاملة، قال لشارلوت إنه يأسف

ألا تمكنه موارده من أن يحدث في المنزل تغييرا كبيرا من أجلها، ولكنه يعرف أن لكل امرأة آراءها الخاصة فيما يجب أن يكون عليه أثاث منزلها وفي أشياء كثيرة من نظامه مما لا يلاحظه الرجل نفسه، وطلب إليها أن تغير فيه ما شاءت دون أن تكلف نفسها عناء استشارته، ولهذا فإنها لم تحدث في المنزل إلا أقل ما تستطيع من التغيير.

ولكن الطريقة التي بدأ بها حياته الجديدة في جو المنزل القديم كانت صريحة خالية من الارتباك، اطمأنت لها من فورها، وكان يؤلما أن وجدت صورة إلزي أشبي التي كانت معلقة فوق المكتب في حجرة المطالعة قد نقلت في أثناء غيابها إلى مخدع الأطفال، ولما كنت تعلم أنها هي السبب الغير المباشر في رفع الصورة من مكانها الأول، فقد تحدثت في ذلك إلى زوجها، ولكنه رد عليها بقوله: "أظن أنه ينبغي للأطفال أن يكبروا وهي تطل عليهم من فوقهم" وأثر هذا الرد في شارلوت وأرضاها، حتى اضطرت فيما بعد أن تقر بأنها أضحت أكثر اطمئنانا في منزلها، وأكثر راحة، وأقرب إلى قلب زوجها وإلى ثقته بها، بعد أن لم يعد هذا الوجه الجميل الخالي من حرارة الحياة والذي كان معلقا على جدران غرفة المطالعة يتتبعها بعينيه الحذرتين، وبدا لها كأن حب كنث إياها قد نفذ إلى السر الذي لم تكد هي تعترف به لقلبها – وهو حاجتها القوية لأن تشعر نفسها بانها المسيطرة على ماضيه نفسه.

لقد تجمعت لها هذه السعادة كلها لتحبب إليها حياتها الزوجية، ولكن من أعجب الأمور أنها وجدت نفسها في الأيام الأخيرة وقد استولى عليها قلق عصبي شديد لم تستطيع أن تتخلص منه، وفي ذات مساء ألفت نفسها عاجزة عن مقاومة هذا الشعور، وقد يكون هذا لأنها كانت متعبة أكثر من

عادتها، أو لأنها قد ضايقها عجزها عن أن تجد طاهيا جيدا، أو لعل هناك سببا تافها سخيفا ماديا أو معنويا حفي أمره عليها، وسارت نحو منزلها ومفتاح الباب في يدها، وأخذت تتلفت إلى الشارع الغاص بالخلائق من ورائها، وإلى السماء التي بدأت تتلألأ فيها أضواء المدينة المسائية، وقالت في نفسها: "إن في الخارج ناطحات سحاب، وإعلانات ومسرات، وإذاعات، وطائرات، وصورا متحركة، وسيارات، وكل ما جاء به القرن العشرون من مخترعات، ومن داخلي البيت شيء لا أستطيع أن أفسره، ولا أن أجد رابطة بينه وبين ما في خارجه، شيء قديم قدوم العالم، غامض غموض الحياة ... يا للسخف!

ما هذا الذي يشغل بالي ويقلق خاطري؟ لقد مضت ثلاثة أشهر لم يأت فيها خطاب – أي منذ اليوم الذي عدنا فيه من الريف بعد عيد الميلاد ... ومن أعجب الأشياء أنها لا تأتي فيما يبدو لي إلا بعد أيام الإجازات! ولم يا ترى أتصور أن سيصلنا واحد منها في هذه الليلة؟"

لم يكن ثمة سبب يحتم وصوله، ولكن أسوأ ما في الأمر – أو لعله من أشد الأمور سوءا – أن كانت تمر بها أيام تقف فيها أمام الباب وهي ترتجف من شدة البرد، وكأن نذيرا ينذرها بأنها ستجد من وراء الأبواب المغلقة شيئا لا تستطيع فهمه ولا تستطيع احتماله، فإذا ما فتحت الباب ودخلت الدار فإنها لا تجد شيئا، ثم تأتي عليها أيام أخرى تشعر فيها بمثل هذا الشعور المنذر، وتتحقق فيها مخاوفها، فترى أمامها المظروف الرمادي، ومن أجل هذا فإنها مذ رأت الخطاب آخر مرة أمست تشعر بهذه القشعريرة، وتعاودها النذر في كل ليلة، فلا تفتح الباب من غير أن تفكر في أنها قد ترى الخطاب على النضد.

وضاق صدرها بهذه الحال، ولم تعد تحتمل مزيدا فإذا كان زوجها يمتقع لونه ويتصدع رأسه في كل يوم يتلقى فيه هذه الرسائل فإنه يبدو عليه أنه قد تغلب على هذه الحال، أما هي فلم يكن ذلك في مقدورها، حتى لقد أصبح ما تعانيه من توتر في أعصابها مرضا مزمنا، ولم يكن ليصعب عليها أن تعرف سبب هذا، ذلك أن زوجها يعرف مرسل الخطاب، ويعرف ما فيه، وهو مستعد قبل وصوله إليه أن يبحث موضوعه، ويعالجه، فهو المسيطر بنفسه على الموقف مهما يكن فيه من شر، أما هي فتجهل كل شيء، وليس أمامها إلا طريق الحدس والتخمين.

وصاحت وهي تدير المفتاح في القفل: "إني لا أطيق هذا لا أطيقه بعد اليوم" ثم فتحت الباب ودخلت فإذا الخطاب على النضد.

وكاد يسرها منظر الخطاب، فقد خيل إليها انه يبرر كل شيء، وأنه يوضح هذا الأمر الغامض كل الوضوح، ويحدده أتم التحديد، فها هو ذا خطاب مرسل إلى زوجها، خطاب من سيدة – وما من شك في أنه حالة حقيرة أخرى من حالات "الارتباكات القديمة". وما كان أسخفها إذ تشك في هذا الأمر، وأن تجهد نفسها في البحث عن تفسيرات أقل من هذا التفسير وضوحا! وأمسكت المظروف بيد ثابتة وبدت في وجهها علائم الاحتقار، وحدقت في الحروف الحائلة بعض الوقت، ثم رفعته أمام ضوء المصباح، ولكنها لم تتبين أكثر من أطراف الورقة المطوية من داخله، وأدركت من فورها أنها لن يقر لها قرار حتى تعرف ما هو مكتوب في تلك الورقة المطوية.

ولم يك زوجها قد جاء إلى المنزل لأنه قلما كان يعود من عمله قبل

منتصف الساعة السابعة أو في تمامها، ولم تكن الساعة السادسة قد حانت بعد، وإذن فقد كان لديها من الوقت ما يكفي للانتقال بالخطاب إلى حجرة الاستقبال فتعرضه للبخار المتصاعد من غلاية الشاي، وقد كان من عاداتها أن تضع الماء في هذه الغلاية في تلك الساعة استعدادا لعودة زوجها، وبهذه الطريقة تستطيع أن تصل إلى السر الخفي، ثم تعيد الخطاب إلى الموضع الذي وجدته فيه، ولن يعرف أحد ما فعلت، وسيزول ذلك القلق الذي يقض مضجعها، ولم يكن أمامها سبيل أخرى لمعرفة الحقيقة إلا أن تسأل عنها زوجها، ولكن قيامها بهذا العمل أصعب عليها من العمل الأول.

وأخذت تزن الخطاب بين سبابتها وإبهامها، وتحدق فيه مرة أخرى أمام الضوء، وصعدت الدرج ومعها المظروف – ثم نزلت مرة أخرى ووضعته على النضد.

وقالت وقد تملكها شعور اليأس: "لا، لا شك أني لا أستطيع".

فماذا تفعل إذن؟ إنها لا تستطيع الآن أن تصعد وحدها إلى تلك الحجرة الدافئة المريحة، فتصب لنفسها الشاي، وتطلع على ما جاءها من الرسائل، ثم تلقي نظرة على كتاب أو مجلة – لا تستطيع ذلك ما دام هذا الخطاب على النضد في الطابق الأسفل، وما دامت تعرف ان زوجها سيأتي بعد قليل، ويفض غلافه، ثم يسرع وحده إلى المكتبة كما يفعل في كل يوم يصله فيه هذا المظروف الرمادي.

ثم استقرت فجأة على رأي، إنها ستنتظر في المكتبة وترى بنفسها ما يحدث، ترى ماذا عسى أن يحدث بينه وبين الخطاب حين لا يظن أن أحدا

يراقبه؟ وأدهشها ألا يمر هذا الخاطر بعقلها قبل الآن، وقالت في نفسها غنها إذا تركت الباب مفتوحا قليلا وجلست في ركن وراءه كان في وسعها أن تراقبه دون أن يراها هو ... وإذن فهي تستطيع أن تراقبه، وما أن استقرت على هذا الرأي حتى أخذت بيدها مقعدا ووضعته في ركن قريب وجلست تنتظر، وعيناها ترقبان فتحة الباب.

وكان مبلغ علمها أن هذه هي المرة الأولى التي حاولت فيها أن تفاجئ إنسانا بأنها عرفت سره، ولكنها هي توشك أن تفعل هذا لم تحس بشيء من وخز الضمير، بل كانت تشعر كأنها تشق طريقها خلال ظلام خانق يجب عليها أن تشق طريقها فيه، مهما كلفها هذا من تضحية.

وأخيرا سمعت مفتاح كنث يدور في الباب، وقفزت من مكانها مذعورة، وكادت تندفع من مكانها لملاقاته ناسية سبب وجودها حيث هي، ولكنها تذكرت ذلك في الوقت المناسب فعادت إلى الجلوس، وكان في وسعها أن ترقب من موضعها حركاته كلها – فرأته يدخل الردهة، ويخلع قبعته ومعطفه، ثم يلتفت يريد أن يضع قفازيه على نضد الردهة، فيقع نظره في تلك اللحظة على المظروف، وسقط الضوء على وجهه وكان أول ما لاحظته شارلوت هو نظرة الدهشة البادية عليه، واتضح لها من هذا انه لم يكن يتوقع وصول الخطاب في ذلك اليوم – بل لم يكن يفكر في احتمال وصوله إليه، والآن وقد رآه أمامه فقد كان بلا ريب يعرف ما يحتويه، وغن لم يكن يتوقع وصوله، ولم يفض الغلاف من فوره بل وقف في مكانه جامدا مبهوتا ممتقع الوجه، وبدا عليه انه لا يستطيع أن يقنع نفسه بأن يمسه بيده، ولكنه أخيرا مد يده إليه وفض الغلاف وسار به نحو الضوء، واتجه وهو يفعل هذا بظهره إلى

شارلوت، فلم تعد تر غير رأسه المطرق وكتفيه المنحنيتين إلى الأمام، وبدا لها أن الكتابة كانت على صفحة واحدة، وذلك لأنه لم يقلب الصفحة، بل ظل يحدق فيها زمنا طويلا حتى قرأها اثنتي عشرة مرة، أو أن هذا هو الذي بدا للمرأة التي كانت ترقبه وقد حبست أنفاسها، ثم رأته أخيرا يتحرك من مكانه، ويقرب الخطاب من عينيه كأنه لم يستطع طوال هذه المدة أن يقرأ كل ما فيه، ثم أطرق برأسه وأبصرت شفتيه تلثمان الورقة.

فصاحت من فورها وهي خارجة إلى الردهة: "كنث!"

فالتفت إليها زوجها والخطاب في يده ونظر إليها، وقال في صوت منخفض ينم عن شدة ارتباكه وكأنه قد استيقظ توا من نومه: "أين كنت؟"

فأجابته وهي تحاول أن تهدئ من روعها: "كنت في المكتبة أنتظر قدومك، ما لي أراك مضطربا؟ وماذا في هذا الخطاب؟ إنك ممتقع اللون".

وكأن اضطرابها قد هدأ من روعه، فوضع المظروف من فوره في جيبه وضحك ضحكة خافتة وقال: "ممتقع اللون؟ يؤسفني هذا، لقد أضنتني كثرة العمل في هذا اليوم إذ عرضت لي قضية معقدة أو قضيتان، وأظن أن علائم الإجهاد الشديد بادية علي"

"لم تكن علائم الإجهاد بادية عليك حين دخلت البيت، وغنما بدت حين فتحت ذلك الخطاب!"

وكان قد تبعها إلى المكتبة فوقف يحدق في وجهها وتحدق في وجهه، ولاحظت شارلوت أنه قد استعاد من فوره سيطرته على نفسه، ذلك بأن مهنته قد علمته كيف يسيطر على وجهه وصوته، وأيقنت لساعتها أنها لن

تفلح في أية محاولة تريد بها أن تعرف سره، ولكنها في الوقت عينه فقدت كل ما كان لها من رغبة في اللف والمداورة والتحايل عليه حتى تعرف منه ما يريد أن يخفيه عنها.

نعم إنها لم تفقد قط رغبتها في النفاذ إلى هذا السر الغامض، ولكنها لم تكن تبغي من وراء عملها هذا إلا أن تعينه على تحمل ما ينطوي عليه هذا السر من عبء يقل كاهله، وقالت في نفسها: "لأفعل هذا ولو كان من وراء هذا السر امرأة أخرى"

وقالت وقلبها يخفق خفقانا شديدا: "أي كنث! لقد تعمدت أن أقف في هذا المكان لكي أراك وأنت داخل، ولأرقبك وأنت تفض غلاف هذا الخطاب".

وما أن نطقت بهذه العبارة حتى أحمر وجهه بعد أن كان ممتقعا، ثم عاد فامتقع من جديد، وقال لها: "هذا الخطاب؟ ولم هذا الخطاب بنوع خاص؟".

"لأني لاحظت أنه كلما جاءك أحد هذه الخطابات كان له فيك أثر جد عجيب"

وبدا بين عينيه مظهر من مظاهر الغضب لم تر مثله من قبل، وقالت هي في نفسها: "إن الجزء الأعلى من وجهه جد ضيق، وهذه أول مرة ألاحظ فيها هذا الضيق".

وسمعته يواصل حديثه بالنغمة الهادئة الضعيفة الساخرة التي ينطق بها المحامي إذا وجد حجة قوية يأخذها على خصمه: "إذن فقد اعتدت أن تراقبي الناس وهم يفضون رسائلهم ولا يعرفون أنك تراقبينهم؟".

"لم أعتد هذا، ولم أفعل مثله من قبل، ولكني كنت مضطرة لأن أعرف ما تكتبه لك في فترات منتظمة وفي هذه المظاريف الرمادية".

وفكر في قولها هذا هنية ثم قال: "إن هذه الفترات لم تكن منتظمة".

فأجابته وقد زايلها هدوؤها وثباتها عند سماعها النغمة التي كان يتحدث بها:

"لا شك في أنك كنت أحرص مني على معرفة تواريخ وصول الخطابات إليك، وكل ما أعرفه أنك كنت في كل مرة تتلقى فيها رسالة من تلك المرأة ـ".

"ولماذا تفترضين أنها من امرأة؟"

"إنها كتابة امرأة، فهل تنكر هذا؟".

فقال وهو يبتسم: "لا، لست أنكره، ولم أسألك هذا السؤال إلا لأن الناس يظنون بوجه عام أن الكتابة أقرب كتابة إلى الرجال منها إلى كتابة النساء".

وسكتت شارلوت عن هذا القول وهي بادية الغضب وقالت: "وفي أي شيء تكتب إليك – هذه المرأة؟".

وبدا مرة أخرى أنه يفكر ثم قال: "في عمل من الأعمال".

"أهو عمل قانوني؟"

"هو قانوني من بعض الوجوه ولكنه عمل عام"

"أتعني أنت بمصالحها؟".

"نعم".

"وهل تعني بها من زمان؟".

"نعم من زمن جد بعيد".

"وهل لك يا كنث، يا أعز الناس علي، أن تخبرني من هي؟"

"لا، لا أستطيع" وسكت ثم قال في شيء من التردد: "إنه سر المهنة".

وصعد الدم من وجه شارلوت إلى رأسها وصاحت: "لا تقل هذا — لا تقله"

"ولم لا أقوله؟"

"لأني رأيتك تلثم الخطاب".

وكان لهذه العبارة من الأثر السيء في نفسه ما جعلها تندم على أن نطقت بها.

ذلك أن زوجها، وقد خضع من قبل لاستجوابها وهو هادئ هدوء من لا يعبأ بهذا الاستجواب، كانه يلاطف طفلا لا يعقل، التفت إليها وقد بدت على وجهه دلائل الفزع والشقاء وظل بعض الوقت صامتا كانه عاجز عن الكلام، ثم أستجمع قواه بجهد جهيد وتمتم قائلا:

"إن الخط غير ظاهر، وما من شك في أنك قد رأيتني أقرب الخطاب من عيني وأنا أحاول قرأته".

"لا، بل رأيتك تقبله" فلم يرد عليها بشيء وواصلت هي حديثها قائلة: "أتظن أني لم أراك تقبله؟"

وبدا كأنه لا يعبأ بما قالت، ثم أجابها بقوله "ربما كان هذا".

"كنث، أتقف في هذا المكان وتقول ذلك – لي؟"

"وماذا عسي أن يهمك من هذا؟ إن الخطاب خاص بعملي كما قلت لك، وهل تظنين أني كاذب فيما أقوله؟ وكاتبة الخطاب صديقة لي قديمة لم أرها من زمن طويل"

"إن الرجال لا يقبلون الرسائل المتصلة بأعمالهم، ولو جاءهم من نساء كن صديقات لهم من زمن بعيد، إلا إذا كن عشيقات لهم، وكانوا هم لا يزالون يأسفون على فراقهن".

وهز كتفيه قليلا ثم ولى مدبرا كانه رأى أن النقاش قد انتهى، وكأنه ساءه بعض الإساءة ما وصل إليه.

وخطت شارلوت نحوه وأمسكت بذراعه وقالت له: "كنث!"

ووقف وقد بدت عليه علائم التعب ووضع يده فوق يدها وسألها في رقة وحنان "ألا تصدقيني؟".

"وكيف أصدقك؟ لقد راقبت وصول هذه الرسائل إليك – وقد ظلت تأتيك من عدة شهور أي من اليوم الذي رجعنا فيه من جزائر الهند الغربية – فقد جاءتني واحدة منها تحية لي في اليوم الذي وصلنا فيه وإني لأرى ما تحدثه هذه الرسائل من أثر خفي عجيب فيك كلما جاءتك واحدة منها،

فأراك قلقا مضطربا شقيا كأن إنسانا ما يريد أن ينتزعك مني".

"لا يا عزيزتي، لا، لن يحدث ذلك، لن يحدث أبدا!".

وتراجعت قليلا ونزرت إليه نظرة حب واستعطاف وقالت له "إذن فلتثبت هذا لي يا عزيزي، وليس ذلك بعزيز عليك!"

وابتسم ابتسامة متكلفة وقال: "ليس من السهل أن يثبت الإنسان شيئا لامرأة إذا ما رسخت في عقلها فكرة ما".

"ليس عليك إلا أن تطلعني على هذا الخطاب".

وانسحبت يده من يدها وتراجع قليلا وهز رأسه؟.

"إنك لا تريد أن تفعل هذا؟"

"لا أستطيع".

"إذن فالمرأة التي كتبت الخطاب عشيقتك".

"لا، يا عزيزتي، لا".

"ربما لا تكون عشيقتك الآن – ربما، أظن أنها تريد أن تستعيدك الآن، وأنك تحاول التخلص منها رحمة بي، مسكين يا كنث!".

"أقسم لك أنها لم تكن في يوم ما عشيقتي".

وأحست شارلوت بالدموع تنحدر من عينيها، فقالت وهي ترفع يديها وتخفي بهما وجهها: "إذن فالأمر أسوأ مما كنت أظن، أنه أمر ميؤوس منه! إن ذوات العقل هن اللاتي يحتفظن بسيطرتهن على الرجال، وكلنا يعرف ذلك".

وظل زوجها صامتا، ولم يواسها أن ينفي شيئا من أقوالها، ثم مسحت هي دموعها آخر الأمر ورفعت عينيها إلى وجهه وفيهما شيء من مظاهر الوجل وقالت:

"كنث" تدبر في الأمر: إن زواجنا قريب العهد جدا، تصور ما تسببه لي من عذاب حين تقول إنك لا تستطيع أن تطلعني على هذا الخطاب، وحين تأبى أن تفصح لي عن حقيقة أمره"

"لقد قلت لك إن الخطاب خاص ببعض أعمالي، وأقسم لك أني صادق في هذا أيضا".

"إن الرجل ليقسم على أي شيء إذا استطاع بقسمه أن يحمي امرأة، فإذا كنت تريدني أن أصدقك فلا أقل من أن تفضح لي عن اسمها، فإن فعلت فأني أعدك ألا أطلب إليك أن تطلعني على الخطاب".

ومضت فترة طويلة لم ينبس فيها كلاهما ببنت شفة، وشعرت هي في خلالها بدقات قلبها بين ضلوعها، دقات قوية خيل إليها أن فيها نذيرا لها بالخطر الذي توشك أن تجره على نفسها.

ثم قال لها آخر الأمر : "لا أستطيع".

"لا تستطيع أن تبوح لي حتى باسمها"

"لا"

"ولا تستطيع أن تخبرني بشيء غير ما أخبرتني به؟"

"لا"

وساد السكوت مرة أخرى، وبدا لهما في هذه المرة أنهما قد وصلا إلى آخر ما عندهما من جدل، وأنهما يواجهان بعضهما بعضها ومن بينهما بيداء من سوء الظن لا سبيل إلى اقتحامها.

ووقفت شارلوت ويداها فوق صدرها وقلبها يخفق خفقانا شديدا، كما يخفق قلب المتسابق بعد أن جرى شوطا بعيدا ولم يفلح في الوصول إلى آخر السباق، فقد كان غرضها أن تؤثر في عواطف زوجها ولكنها لم تفلح إلا في مضايقته، وبدا لها أن ما ارتكبته من خطأ في التقدير قد بدله فصار إنسانا غريبا عنها، غامضا لا تستطيع أن تدرك مكنون ضميره، ولا تستطيع أن تسير غوره ولا يصل قلبه شيء من حججها أو توسلها، وأغرب ما بدا لها من أمره أنها لم تشهد لديه شيئا من العداء أو نفاذ الصبر، وكل ما بدا لها هو تباعده وانطواؤه على نفسه، وهما تباعد وانطواء يتعذر عليها أن تغالبهما، وأحست بأنه يتجاهلها ويخرجها من تفكيره، بل يمحوها من مجرى حياته محوا تاما، ولكنها بعد لحظة أو لحظتين نظرت إليه وهي أكثر هدوء فأدركت أنه لم يكن أقل منها عذابا، ورأت وجهه ينم عن شديد الألم، وأيقنت أن وصول المظروف الرمادي، وإن كان يلقي عليه ظلا من الحزن والكآبة، لم يؤثر فيه بمقدار ما أثر فيه هذا النقاش الذي جرى بينه وبين زوجته.

ثم استجمعت شارلوت شجاعتها، فلعلها لم تلق بآخر سهم في كنانتها، واقتربت منه ووضعت يدها مرة أخرى على ذراعه وقالت له في حنان: "مسكين يا كنث! إنك لو عرفت مقدار حزني وألمي مما أنت فيه"

وظنت أنه قد غمز بعينيه قليلا حين سمع هذه العبارات الدالة على

العطف، ولكنه أمسك بيدها وضغط عليها.

فواصلت حديثها قائلة: "إن أسوأ ما أستطيع أن أفكر فيه هو عجزي عن أن أجعل حبي يدوم طويلا، وأن أشعر بجمال حب عظيم، وأن أكون متقلبة عاجزة عن تحمل عبئه".

وألقى عليها نظرة فيها مزيج من اللوم والحب وقال: "لا ترميني بهذه التهمة، لا تقولي شيئا عن التقلب!"

وأحست أخيرا أنها سلكت الطريق السوي، واضطرب صوتها من فرط التأثر حين واصلت حديثها قائلة: "إذن ما قولك في وفي تلك المرأة الأخرى؟ ألم تنس إلزي مرتين في خلال عام واحد"؟

وقلما ذكرت من قبل اسم زوجته الأولى، فقد كان هذا الاسم لا يرد بطبيعته على لسانها، وقد قذفت به الآن كأنها تقذف فيما بينها وبين زوجها بكمية من المفرقعات الخطرة، ثم تراجعت خطوة إلى الوراء كأنها تنتظر انفجار هذه المفرقعات.

بيد أن زوجها لم يتحرك، وبدا الحزن على وجهه أشد مما كان، ولكنه لم تظهر عليه دلائل الغضب وقال: "إني لم أنس إلزي قط"

ولم يكن في وسع شارلوت أن تكبت ضحكة خفيفة: "إذن ما أشقاك يا عزيزي بيننا نحن الثلاث!"

وبدأ يقول: "ليس ثمة — " ثم سكت وأمسك بيده جبهته.

"ليس ثمة ماذا؟"

"آسف كل الأسف، ولست أظن أني أعي ما أقول، إن رأسي مصدع أشد التصديع". والحق أن وجهه الممتقع المتجعد كان أقوى شاهد على صدق ما يقول، ولكنها قد ساءها أن يروغ في الإجابة عن سؤالها.

"أي نعم، صداع المظروف الرمادي"

ورأت الدهشة بادية في عينيه ثم أجابها في فتور: "لقد نسيت أنني كنت أراقب عن كثب، وإذا سمحت لي فإني أحب أن أصعد إلى غرفتي وأقضي ساعة في الظلام لعلي أستطيع التخلص من هذه الآلام العصبية.

فترددت قليلا ثم قالت بعزيمة القانط: "يؤسفني أن تكون مصدعا، ولكني أحب أن أقول لك قبل أن تغادر هذا المكان إن هذه المسألة يجب أن تسوى بيننا عاجلا كان ذلك أو آجلا، إن شخصا ما يريد أن يفرق بيننا، ولست أبالي ما ألاقي في سبيل الكشف عن هذا الشخص" قالت هذا وهي تحدق في عينيه ثم واصلت حديثها قائلة: "وإذا فقدت في ذلك حبك فإن هذا لا يهمني، فإذا لم أكن أهلا لثقتك، فليت أريد منك شيئا!".

وظل هو ينظر إليها نظر المشفق ثم قال: "اصبري علي".

"وعلام الصبر، غنها كلمة تخرج من فيك"

"اصبري علي حتى أبرهن لك أنك لن تفقدي حبي أو ثقتي".

"هأنذا في الانتظار".

واتجه نحو الباب ثم عاد فألقى عليها نظرة فيها شيء من التردد وقال: "اصبري علي يا حبيبتي"، ثم غادر الحجرة.

وسمعت وقع خطاه المتعبة على الدرج كما سمعت باب غرفة نومه في الطابق العلوي يغلق، ثم استلقت على كرسي وطوقت وجهها بذراعيها، وكان أول ما أحست به تأنيب ضميرها، فقد بدا لها أنها كانت قاسية القلب مجردة من الرحمة، وأنها لم تفكر قط فيما ينجم عن قولها من عواقب، وقالت لنفسها: هل كان يليق بي أن أقول له إني لا أبالي أن تكون نتيجة إلحاحي عليه أن أفقد حبه؟ إن هذا لكذب حقير.

وهمت أن تصعد إلى غرفته وتزيل أثر هذه الألفاظ التي لا معنى لها، ولكنها خطر ببالها خاطر متعها أن تنفذ عزمها، لقد كان له آخر الأمر ما أراد، فراغ من كل هجماتها ومحاولاتها كشف سره، وها هو ذا الآن وحده في حجرته يقرأ رسالة تلك المرأة الثانية.

وكانت لا تزال تفكر في هذا حين جاءتها الخادمة تبحث عنها وهي بادية الدهشة، وأجابتها شارلوت بقولها إنها لن تخرج إلى حجرة الطعام، لأن مستر أشبي متعب لا يريد أن يتناول العشاء، وقد صعد إلى حجرته ليستريح، وسيطلب فيما بعد شيئا من الطعام في حجرة الاستقبال، ثم صعدت الدرج إلى غرفة نومها، وكانت ملابس العشاء ملقاة على سريرها، فلما رأتها استحوذ عليها نظام حياتها اليومية الهادئ الرتيب وخيل إليها أن الحديث العجيب الذي جرى توا بينها وبين زوجها قد حدث في عالم آخر بين مخلوقين ليسا هما شارلوت جوري وكنث أشبي بل صورهما لها خيالها المحموم وطافت بذاكرتها سنة زواجها وإخلاص زوجها الدائم لها، وما كان يظهره في كل حين من عطف شديد عليها، ومان كان يشعرها به في بعض الأوقات من أنه يعتمد عليها في حياتها كل الاعتماد، وأن قلبه ملتصق بقلبها وكأن الهواء نفسه لا يفصل بين

روحه وروحها، وكلما تذكرت هذا كله خيل إليها أن أفظع الفظائع أن تتهمه منذ وقت قصير بأنه يدبر لها المكائد مع امرأة أخرى، ولكن ماذا -؟

ثم أحست مرة أخرى بدافع قوى يدفعها إلى أن تصعد إلى غرفته وتعتذر وتحاول أن تزيل بضحكاتها ما شاب علاقاتهما من سوء فهم، ولكن منعها أن تفعل هذا خشية أن تقتحم عليه عزلته، فلقد كان هو قلقا مشتت الفكر شقيا، يجثم على قلبه كابوس الحزن والخوف، هذا إلى أنه قد أشعرها بأنه يريد أن يغالب أحزانه بمفرده، ومن الحكمة وعزة النفس أن تحترم هذه الرغبة، ولكن بدا لها أن من أعجب الأشياء وأثقلها على النفس أن تكون حيث هي في الحجرة المجاورة لحجرته، ثم تشعر أنها في أبعد أطراف العالم! وكادت في اضطرابها العصبي أن تندم على أنها تؤت الشجاعة الكافية لتفض غلاف الخطاب وتتركه حيث كان على نضد الردهة قبل حضوره، ولو أنها فعلت هذا لاطلعت في القليل على سره وعرفت ما يضمره، ذلك أنها قد بدأت وقتئذ تظن أن هذا السر كان أمرا مدبرا مقصودا به إلحاق الأذى به، وأنه كان اضطهادا مستورا ينخلع له القلب، ولكنه لا يستطيع التخلص منه، وخيل إليها أنها لمحت مرة أو مرتين في عينيه الزائغتين رغبة في أن تساعده، وأنه قد هم بان يفصح لها عما في نفسه، ولكنه سرعان ما حاجز نفسه عن هذه الرغبة وكبتها، وكانه كان يحس أنها ستساعده لو أطلعها على خبيئة نفسه، ولكنه كان مع ذلك عاجزا عن أن يفصح لها عما في قلبه!

وخطر لها في تلك اللحظة خاطر سريع هو أن تطلع أمه على أمره، لقد كانت والدته شديدة الحل لزوجته الأولى، وكانت سيدة ممتلئة الجسم، ثاقبة النظرات، كبيرة السن، غير مجاملة أو مداجيه في حديثها، تلتئم مع طبيعة

شارلوت البسيطة الخالية من التكلف والمصانعة، وقد نشأت بينها وبين شارلوت رابطة قوية، مذ جاءت مسز أشبي لتتغذى مع كنتها وقابلتها في المكتبة، فلما نظرت إلى مكان الصورة التي فوق مكتب ولدها ولم تر هذه الصورة قالت بأسلوبها المختصر المفيد: "أنقلت صورة إلزي؟" فلما أرادت شارلوت أن تشرح لها سبب نقلها قالت: "حسنا لا تعيديها إلى مكانها، فلست أنت وزوجك في حاجة إلى من يكون معكما" وأدركت شارلوت ما تفكر فيه فلم تستطيع أن تحاجز نفسها عن أن تبادلها ابتسامة تعلن موافقتها على ما تراه حماتها، وخيل إليها الآن أن صراحة مسز أشبي قد تعنيها على اختراق ما يحيط هذا السر من غموض، ولكنها ترددت في هذا أيضا لأن تفكيرها في إطلاع والدة زوجها على هذا الأمر يكاد أن يكون خيانة منها له، وأي حق لها في أن تستدعي إنسانا، وإن كان أقرب الناس إلى زوجها، لتطلعه فجأة على سر يحاول أن يخيفه عنها هي، وقالت في نفسها: "ربما تحدث هو إلى أمه في هذا الأمر في الوقت المناسب" ولكنها قالت في آخر الأمر: "وأي ضير في هذا؟ إن هذا الأمر يجب أن يسوى بيننا".

وكانت لا تزال تفكر في هذه المكلة حين دق الباب ودخل عليها زوجها، وكان يرتدي ملابس العشاء وبدت عليه الدهشة حين رآها جالسة في ذلك المكان وملابس العشاء ملقاة على السرير.

وسألها: "ألا تعتزمين النزول؟"

فأجابت وهي تتلعثم في أقوالها: "حسبت أنك متعب وأنك قد آويت إلى الفراش"

وابتسم ابتسامة متكلفة وقال: "لست على أحسن حال، ولكن خير لنا أن ننزل إلى الطابق الأسفل". وبدا وجهه الآن أهدأ مما كان حين فر إلى الطابق العلوي منذ ساعة واحدة وإن لم تفارقه آثار الكآبة.

وقالت هي في نفسها: "تلك هي الحقيقة، أنه يعرف ما في الرسالة، وها هو ذا قد جاهد وانتصر أيا كان هذا الجهاد، أما أنا فلا أزال أتخبط في ظلام، ثم دقت الجرس وأصدرت أمرا سريعا بأن يهيأ الطعام بأسرع ما يستطاع — وقالت إنها تريد وجبة بسيطة من أي طعام يستطاع إعداده على الفور، لأنها هي ومستر أشبي متعبان بعض الشيء، ولا يشعران بشدة الجوع.

وأعد الطعام وجلسا إلى المائدة، وخيل إليهما في بادئ الأمر أن ليس لديهما ما يتحدثان عنه، ثم بدأ أشبي وهو يتكلف الهدوء ولكن هدوءه هذا كان أثقل على نفسها من صمته.

وقالت شارلوت وهي تتبع سلسة أفكارها بينما كان هو ينتقل في حديثه من أخبار السياسة المحلية إلى أخبار الطيران، ومعرض الرسوم الفرنسية الحديثة، وصحة عمة له عجوز، وتركيب مسرة في سيارته: "ألا ما أشد تعبه! ألا ما أشد تعبه وما أكثر ما يسببه له هذا التعب من آلام! رباه ما أشد تعبه!"

وكان من عادتهما كلما تعشيا وحدهما أن يذهبا إلى المكتبة عقب العشاء فتستلقي شارلوت على أريكة تشغل نفسها بالتطريز، ويجلس هو على كرسي ساند تحت ضوء المصباح ويشعل قصبته، أما في هذه الليلة فقد كان بينهما شبه اتفاق صامت على أن يتجنبا الحجرة التي جرى فيها حديثهما العجيب، وصعدا إلى حجرة الاستقبال الخاصة بشارلوت.

وجلسا بالقرب من المدفأة وبدأت شارلوت الحديث بعد أن صنع قدح القهوة ولم يكد يذوقه: "أتريد قصبة التدخين؟"

فهز رأسه وقال: "لا حاجة لي بها الليلة"

"يجب أن تأوي إلى فراشك مبكرا، إن علائم التعب الشديد بادية عليك، ولست أشك في أنهما يرهقونك بالعمل في مكتبك"

"أظن أننا كلنا نرهق بالعمل أحيانا"

ثم انتصب قائمه ووقفت أمامه وقد بدت عليها دلائل العزيمة فجأة: "لن أسمح لك بأن ترهق نفسك هذا الإرهاق الشديد، هذا أمر لا يليق بك، ولست أشك في أنك مريض" ثم انحنت نحوه وضمت يدها على جبهته وواصلت حديثها قائلة: "مسكين يا كنث، يجب أن تعد نفسك للرحيل في إجازة طويلة"

ونظر إليها في دهشة شديدة: "إجازة؟"

"نعم، بلا ريب، ألم تعلم أني كنت أرتب لك رحلة في عيج الفصح؟ ستبدأ بعد أسبوعين رحلة بحرية إلى مكان ما تدوم شهرا من الزمان" ثم سكتت وانحنت أكثر من ذي قبل ومست جبهته بشفتيها وقالت له: "وأنا أيضا متعبة يا كنث"

وخيل إليها أنه لم يعن قط بعبارتها الأخيرة، بل جلس ويداه على ركبتيه، وقد أبعد رأسه قليلا عنها ونظر إليها نظرة من يتوجز في نفسه خيفة وقال: "إجازة ثانية، لا يا عزيزتي إنا لا نستطيع، لن أستطيع السفر".

"لست أدري يا كنث لم تقول ثانية؟ إنا لم نستمتع بإجازة حقة في هذا العام".

"لقد قضينا في عيد الميلاد أسبوعا في الريف مع الأطفال".

"نعم، ولكني في هذه المرة أريد أن نكون بعيدين عن الأطفال، وعن الخدم، وعن المنزل، وعن كل شيء مألوف ومتعب، إن والدتك يسرها أن يكون معها جويس وبيتر".

فقطب وجهه ثم هز رأسه هزا بطيئا: "لا، يا عزيزتي، لا أستطيع أن أتركهما مع والدتي".

"ولم يا كنث؟ ما اعجب هذا القول وما أسخفه! إنها تكاد تعبدهما عبادة، وأنت نفسك لم تتردد أن تتركهما معها اكثر من شهرين حين سافرنا إلى جزائر الهند الغربية".

وزفر زفرة قوية ووقف وعلائم القلق بادية عليه: "لقد كان الأمر حينذاك يختلف عنه الآن".

"يختلف؟ ولم؟"

"أقصد أني في ذلك الوقت لم أكن أدرك –" ثم قطع حديثه كأنه يريد أن يختار ألفاظا، ثم واصله قائلا: "إن والدتي تكاد تعبد طفلي كما تقولين، ولكنها ليست على الدوام حصيفة فيما تعاملهما به، وكثيرا ما تتلف الجدة الأطفال وهي تتحدث أمامهما دون تفكير في بعض الأحيان". ثم التفت إلى زوجته وأشار إليها بيديه إشارة تكاد تكون توسلا إليها، وقال: "بحقك لا تطلبي ذلك إلي يا عزيزتي".

وفكرت شارلوت في الأمر نعم إن مسز أشبي الكبيرة لا تتورع عن أن تنطق بكل ما تريد، ولكنها آخر امرأة في العالم تقول شيئا أو تلمح بشيء أمام أحفادها يستطيع أشد الآباء حرصا أن يجد فيه ما يصح أن يقال، ونظرت شارلوت إلى زوجها وهي بادية الحيرة: "إن الأمر مغلق علي فلا أستطيع أن أفهم منه شيئا".

وظل ينظر إليها نظرة الشخص المتعب المتوسل ثم تمتم قائلا: "لا تحاولي".

"لا أحاول أي شيء؟"

"لا تحاولي الآن – لم يحن الوقت بعد" ثم رفع يديه وضغط بهما صدغيه: "ألا ترين فائدة ترجى من الإلحاح؟ إني لا أستطيع السفر مهما أكن في حاجة إليه".

وظلت شارلوت تلقي عليه نظرات فاحصة وقالت: "إن السؤال الذي أريد أن أعرف جوابه هو: "هل تريد السفر أو لا تريده"

ونزر إليها هنيه، وبدأت شفتاه ترتجفان، وقال بصوت لا يكاد يسمع: "إني أريد – أي شيء تريدينه؟"

"ومع ذلك"

"لا تطلبي إلي أن أسافر، فلن أستطيع السفر – لن أستطيعه!"

"أتقصد أنك لا تستطيع أن تبتعد عن تلك الرسائل حتى لا تصل إليك؟"

وكان زوجها قبل أن تفوه بهذه العبارة يقف أمامها وقفة القلق المتردد بعض التردد، أما بعد أن نطقت بها فقد أدار ظهره فجاءة إليها، وأخذ يذرع الحجرة جيئة وذهابا مرة أو مرتين، وهو مطرق برأسه، وعيناه لا تتحولان عن النظر إلى الطنفسة.

وأحست شارلوت بأن غضبها يشتد كلما اشتدت مخاوفها، وقالت في إصرار شديد: "نعم، هو ذاك، فلم لا تعترف به؟ إنك لا تستطيع أن تعيش بغير هذه الرسائل".

وواصل هو خطاه المضطربة في الحجرة، ثم وقف فجاءة، واستلقى على أحد المقاعد، وغطى وجهه بيديه، وعرفت شارلوت من اهتزاز كتفيه أنه يبكي، ولم تكن قد رات من قبل رجلا يبكي إلا والدها عقب وفاة أمها حين كانت هي طفلة، وكانت لا تزال تذكر حتى هذه الساعة ما استولى عليها من الخوف حين رأت ذلك المنظر، وعاد إليها ذلك الخوف نفسه في هذه اللحظة، وأحست أن زوجها ينتزع الآن منها ليكبل بأغلال خفية، وأن عليها أن تستعين بكل ما بقى فيها من قوة للكفاح في سبيل حريته وحريتها؟

فأخذت تتوسل إليه وهي جاثية بجواره: "كنث –كنث! ألا تستمع إلي؟ ألا تريد أن ترى ما أعانيه من شقاء؟ إني لست ناقصة العقل يا عزيزي، لا! لست ناقصة العقل، ولست أظن أني كنت ألتفت قط إلى هذه الرسائل لولا ما شاهدته من تأثيرها فيك، فليس من شيمتي أن أتجسس على شئون غيري من الناس، وحتى لو كان أثرها فيك غير ما رأيت – نعم، نعم، أنصت إلي – لو أنني رأيت أن هذه الرسائل كانت تدخل السرور على قلبك، وأنك

تترقب وصولها باشتياق ولهفة، وتحسب الأيام التي تمضي قبل وصولها، وانك تريدها، وأنها تهدي إليك شيئا لا أستطيع أنا أن أهديه إليك – نعم لو أنني رأيت هذا يا كنث، فلست أدعي أنني كنت لا أتألم منه كما أتألم الآن، ولكني أقول إن ألمي كان في تلك الحال يختلف عن آلامي الراهنة، وإذن لأوتيت من الشجاعة ما أستطيع به أن أخفي ما أشعر به، ومن الرجاء ما يجعلني أرتقب اليوم الذي تشعر فيه نحوي بمثل ما تشعر به نحو كاتبة الرسائل، ولكن الذي لا أطيقه قط هو أن أراك ترهب هذه الرسائل وأنها تعذبك عذابا أليما، ومع ذلك فإنك لا تستطيع أن تعيش بدونها، ولا تريد أن تسافر لئلا تضيع واحدة منها في أثناء غيابك "ثم واصلت حديثها، وقد استحال صوتها إلى صراخ الاتهام الصريح: "أو لعلها قد أمرتك ألا تسافر، كنث! إن عليك أن تجيبني جوابا صريحا! أذلك هو السبب؟ هل تأبى السفر لأنها أمرتك ألا تسافر معي؟"

وظلت هي راكعة بجانبه، ثم رفعت يديها وجذبته بلطف نحو الأرض، وبدا عليها الخجل من إصرارها هذا، ومن أنها كشفت عن وجهها القلق المضطرب، ولكنها مع ذلك قد اعتزمت ألا يحول شيء من هذه الآراء بينها وبين ما تبتغيه.

وخفض هو عينيه وارتجفت عضلات وجهه، وأدركت، أنها قد جعلته يعاني من الآلام أكثر مما تعانيه هي منها، ولكن هذا الشعور نفسه لم يمنعها أن تتابع قولها

"كنث! أهذه هي الحقيقة؟ أهي التي تجعلك لا تريد أن نسافر معا؟"

وظل هو صامتا لا يحول نظراته إليها، وأحست هي بشعور الهزيمة يسري في جسدها، وبان الكفاح سينتهي آخر الأمر بهزيمتها فقالت له: "لا حاجة لي بالجواب فأنا واثقة من أني على حق".

ولما همت بالوقوف التفت إليها فجاءة وجذبها إليه مرة أخرى، وأمسك يديها بيديه، وضغط عليهما بقوة شعرت معها بأن خواتمها تغور في لحمها، وكان في قبضته ما يشعرها بأنه خائف مهتاج، فقد كانت قبضة رجل يحس بأنه يوشك أن يتردى في هاوية، وأخذ يحدق فيها كأن خلاصه مما يعانيه إنما يأتيه من ذلك الوجه الذي يطل عليه، وقال بصوت منخفض مضطرب: "سنسافر معا بلا ريب، سنسافر إلى أي مكان تريدين" ثم طوقها بذراعيه وضمها إلى صدره ولثم شفتيها بشفتيه.

وكانت شارلوت قد قالت لنفسها: "سأنام الليلة"، ولكنها لم تنم بل ظلت جالسة أمام النار حتى الساعات الأولى من الصباح، تنصت إلى أي صوت يأتيها من حجرة زوجها، ولكن بدا لها أنه هو على الأقل يأخذ قسطه من الراحة بعد عاصفة المساء، وتسللت مرة أو مرتين إلى باب الحجرة وأطلت من ثقوبه مستعينة بضوء الطريق الشاحب الذي يدخل من نافذتها المفتوحة، فرأته مستلقيا على فراشه غارقا في نوم عميق – نوم الضعيف المنهوك القوى، وقالت في نفسها: "إنه مريض، لا شك في أنه مريض، وليس سبب ضعفه أنه مرهق بالعمل، بل سببه ما يلقاه من الاضطهاد الشديد".

ثم تنفست الصعداء، لقد جاهدت جهاد المستميت حتى انتصرت آخر الأمر – انتصرت على الأقل حتى اللحظة التي هي فيها، وتمنت أن لو

استطاعا أن يسافرا على الفور – يسافرا إلى أي مكان، ولكنها كانت تعرف أن من العبث أن تطلب إليه أن يسافرا قبل العطلة، وإلى أن يحين ذلك الوقت سيظل هذا السلطان الخفي – السلطان الذي لا تزال تجهل حقيقته كل الجهل – يعمل في غير مصلحتها، وسيكون عليها أن تبدأ الكفاح من جديد، وان تواصله يوما بعد يوم حتى يبدأ سفرهما، أما بعد هذا السفر فستتبدل الأحوال، فإذا استطاعت أن تبتعد بزوجها عن هذه الأرض وهذه السماء، فإنها لا تشك لحظة في قدرتها على أن تنجيه من القوة السحرية التي تسيطر عليه، وهدأ هذا التفكير عواطفها بعض الهدوء فاستغرقت هي أيضا في النوم آخر الأمر.

واستيقظت من نومها متأخرة عن موعد استيقاظها العادي كثيرا، وجلست في سريرها وهي مندهشة غاضبة، لأنها نامت هذا النوم الطويل، وكانت تحب على الدوام أن تنزل مبكرة إلى الطابق الأسفل لتشترك مع زوجها في الفطور إلى جوار النار في حجرة المكتبة، ولكنها ألقت نظرة على ساعة الحائط فأدركت من فورها أنه لا بد أن يكون قد خرج إلى مكتبه من زمن بعيد، وأرادت أن تستوثق من هذا فقامت مسرعة من فراشها، وذهبت إلى حجرته، ولكنها وجدتها خالية.

ولم تشك في أنه قد دخل عليها حجرتها قبل أن يغادر البيت فلما رآها لا تزال نائمة نزل إلى الطابق الأسفل من غير أن يزعجها، وكان في العلاقة القائمة بينهما من الحب ما جعلها تأسف لأنها حرمت من أن تستمتع بوجودها معه في ساعة الصباح.

ودقت الجرس وسألت الخادمة هل غادر مستر أشبي الدار، فأجابتها بانه خرج منذ ساعة تقريبا، وأنه أمر قبل خروجه ألا توقظ مسز أشبي من نومها، وألا يدخل ولداه عليها قبل أن ترسل هي في طلبهما .. نعم لقد ذهب بنفسه إلى مخدع الأطفال ليصدر هذا الأمر، وبدا لها هذا كله أمرا طبيعيا لا غرابة فيه، ولم تكد تدرك لم سألت هذا السؤال: "ألم يترك مستر أشبي أية رسالة أخرى؟!".

وأجابتها الخادمة بأنه ترك رسالة، وأنها تأسف أشد الأسف لأنها نسيت أن تبلغها إياها، وقالت إنه طلب إليها وهو خارج من الدار أن تبلغ مسز أشبي أنه ذاهب ليعد جوازي سفرهما وأنه يرجوها أن تستعد للسفر غدا.

ورددت شارلوت قول الخادمة "غدا؟" وجلست تحدق فيها وهي بين مصدقة ومكذبة "غدا؟ – آنت واثقة من أنه قال إننا سنسافر غدا؟"

"إني يا سيدتي واثقة من هذا كل الوثوق، ولست أدري كيف نسيت أن أذكر لك هذا من بادئ الأمر".

"فليكن، إن هذا لا يهمني كثيرا، أعدي لي الحمام من فضلك" وقامت شارلوت من فورها وارتدت ملابسها مسرعة، ولم تدر إلا وهي تغني لصورتها في المرأة بينما كانت تسرح شعرها، وأحست أنها قد عادت فتاة صغيرة بعد هذا النصر المبين.

وتضاءلت المرأة الأخرى حتى صارت كالذرة أمام هذه المرأة التي سيطرت الآن على مستر أشبي، والتي أخذت تبتسم وهي تنظر إلى عينيها وشفتيها في المرآة، إذن فهو يحبها – يحبها من كل قلبه حبا لا يقل عن حبه

السابق لها، لقد أحس بما تعانيه من آلام، وأدرك أن سعادتهما لا تكون إلا إذا سافرا على الفور، وعرف كل منهما صاحبه مرة أخرى بعد ما ظلا في الليلة الماضية يتحسس كلاهما الآخر في الضباب.

ولم تعد شارلوت الآن تبالي كثيرا بما عسى أن تكون تلك القوة التي فصلت بينهما، لقد واجهت هي ذلك الشبح وطردته من أمامها، وقالت لنفسها: "الشجاعة – ذلك هو السر! لو أن المحبين لم يكونوا على الدوام يخشون أن يجازفوا بسعادتهم في مواجهة هذا الشبح الرهيب" ولما فرغت من تصفيف شعرها الغزير رأته يتماوج فوق أسهار تماوج التيجان على رؤوس الأبطال المنتصرين، ومر بخاطرها آنئذ أن من النساء من عرفن كيف يسن الرجال، ومنهن من لا يعرفن، وذكرت المثل المأثور القائل إن الشجعان وحدهم هم الجديرون بالحسان فعكسته حتى جعلته، إن الحسان وحدهن هن الجديرات بالشجعان! وما من شك في أنها وقتئذ كانت تبدو حسناء فاتنة.

وكان الصباح صحوا جميلا فأذكرها جمال البحر الذي توشك أن تركبه، وأمرت أن يعد لها ولزوجها غداء شهي، وأرسلت الطفلين بنفسها إلى مدرستهما، وأمرت أن يؤتى لها بحقائبها، وأخذت تستشير خادمتها فيما يصح أن تأخذه معها من الملابس، وهل يحسن أن تأخذ ملابس الصيف – لأنهما بطبيعة الحال سيذهبان حيث الحرارة وضوء الشمس – وبدأت تساءل نفسها هل يجب أن تخرج حلل كنث الصيفية لتأخذها معها، ثم عادت فقالت لنفسها: "أليس عجيبا ألا أعرف حتى الآن أين نحن ذاهبان؟" ونظرت إلى الساعة ورأت أنها قد اقتربت من الثانية عشرة وقررت أن تقاطبه تليفونيا في مكتبه، ولم يجبها أحد على الفور، ثم سمعت صوت أمينة سره تخول أن مستر

أشبي حضر مبكرا، ولكنه لم يمكث في مكتبه بل غادره على الفور.

وقالت له شارلوت إنها ستتصل بها مرة أخرى بعد قليل، ثم سألتها عن الزمن الذي سيقضيه في خارج مكتبه، فأجابتها أمينة سره أنها لا تعرف هذا على وجه التحقيق وأن كل ما يعرفه من في المكتب أنه قال وهو خارج منه إنه سيغادر المكان مسرعا لأنه مضطر إلى الذهاب إلى خارج البلدة.

خارج البلدة! ووضعت شارلوت سماعة المسرة في مكانها، وجلست تحدق بعينيها في الظلام، ترى أذهب إلى خارج البلدة؟ وإلى أي مكان ذهب؟ ولم أختار اليوم السابق ليوم سفرهما الذي رتباه فجاءة دون سائر الأيام؟ وأوجست في نفسها خيفة، وأحست برجفة تسري في جسمها، لا شك في أنه لم يذهب إلى خارج البلدة إلا ليرى تلك المرأة – ليستأذنها في السفر بلا ريب، لقد بلغ خضوعه لها هاذ الحد، ومع ذلك فقد كانت شارلوت من الغفلة بحيث تظن أنها قد عقد لها لواء النصر، وضحكت ضحكة عالية، ومشت قليلا في الحجرة، ثم عادت إلى الجلوس أمام مرآتها.

وما أشد ما طرأ على وجهها من تبدل! فقد اصفرت شفتاها كأنهما تسخران من الشفتين الحمراوين اللتين كانتا شارلوت من قبل، ولكن اللون عاد يسري فيهما بعد قليل، لقد كان من حقها أن تظن أنها انتصرت، فها هو ذا زوجها يفعل ما تريده هي لا ما تحمله عليه المرأة الأخرى، ولقد كان من الطبيعي بعد أن استقر رأيه فجاءة على السفر غدا أن تكون لديه بعض الشئون يريد أن ينظمها، أو بعض الأعمال الخاصة يريد أن ينتهي منها قبل سفره، ولم يكن من الضروري قط أن تفترض أن رحلته العجيبة كانت لزيارة

كاتبة الرسائل، فلربما كان كل ما يبتغيه من سفره أن يزور عميلا من عملائه يسكن خارج المدينة، وكان من الطبيعي ألا يطلع أن في المكتب شارلوت على هذا، فقد كانت أمينة السر تتردد قبل أن تفضي إليها بذمل الخبر التافه خبر غياب مستر أشبي، وستواصل هي استعدادها للرحيل وهي مبتهلك مرحة، راضية أنها ستعرف في أثناء النهار إلى أية جزيرة من جزائر السعداء ستستجم مع زوجها.

ومرت الساعة أو بعبارة أصح قضت هي الساعات في الاستعداد العاجل إلى الرحلة المرتقبة حتى دخلت عليها الخادمة آخر الأمر لتسدل الستائر، فقطعت عليها عملها، وأدركت لفرط دهشتها أن الساعة قد أوفت على الخامسة، ومع ذلك فإنها لما تعرف أين يذهبان في غد، ودقت التليفون إلى مكتب زوجها فقيل لها أن مستر أشبي لم يعد إليه مذ خرج في الصباح الباكر، وطلعت شريك زوجها ولكنه هو أيضا لم يكن في وسعه أن يزيد على معلوماتها شيئا، فقد وصل إلى المكتب بعد أن جاء مستر أشبي وخرج وذلك لأن قطار الضواحي قد تأخر عن موعده، وتحيرت شارلوت في أمرها فلم تدر ما تفعل، ثم قررت أن تدق التليفون إلى حماتها فقد بدا لها أن أشبي لا بد أن يكون قد ذهب ليزور والدته بعد أن قرر السفر غدا، ولو لم يكن لديه من الأمور ألا أن الطفلين سيبقيان مع جدتهما – رغم معارضته الغامضة لهذا البقاء – لكان لا بد له أن يذهب إليها ليتفق معها على أمور كثيرة، ولو كانت الظروف غيرها الآن لأحست شارلوت ببعض الألم لعدم اطلاعها على حديثه مع والدته بشأن الأطفال، كأنها ليست موضع ثقته، ولكنها الآن لم يكن يعنيها إلا أنها قد خرجت من النضال فائزة، وأن زوجها لا يزال لها هي

دون غيرها من النساء، ودقت التليفون إلى مسز أشبي وهي منشرحة الصدر واستمعت إلى صوتها الحنون، وبدأت حديثها معها بقولها: "هل أدهشتك أخبار كنث؟ وما رأيك في قرارنا؟"

وعرفت شارلوت لساعتها، وقبل أن ترد عليها مسز أشبي، ماذا ستجيب به، فهي لم تر ابنها، وهو لم يكتب إليها شيئا، ولم تعرف لما تقوله كنتها معنى، ووقفت شارلوت صامتة وقد أخذت عليها دهشتها كل مذاهب القول، فلم تنبس ببنت شفة، وقالت في نفسها: "إذن فأين ذهب؟" ثم تملكت عواطفها وأخذت تشرح لمسز أشبي قرارها الفجائي، واستعادت في أثناء الشرح ثقتها بنفسها ويقينها بأن لا شيء يمكن أن يفرق مرة أخرى بينها وبين كنث، وتلقت مسز أشبي هذا النبأ بهدوء وأبدت ارتياحها إلى اعتزامهما السفر، وقالت إنها هي أيضا تظن أن كنث تبدو عليه علائم التعب والإجهاد، وإنها توافق كنتها على أن تغير المناظر خير علاج لمن كان في مثل حاله، وأضافت إلى ذلك قولها: "إني لأرتاح أشد الارتياح حين يسافر إلى مكان ما، ولقد كانت إلزي تكره الأسفار، وكانت على الدوام تختلق المعاذير لعدم سفره إلى أي مكان، وإني لأحمد الله أنك لست مثلها". كذلك لم يدهش مسز أشبي أنه لم يجد متسعا من الوقت يبلغها فيه نبأ سفرهما، فما من ذلك في أية مد وطد العزم على السفر قد وجد ألا بد له من أن يسوي أمورا كثيرة على عجل ولكنها لم تشك في انه سيمر عليها قبل العشاء، ولم تكونا في حاجة إلى مواصلة الحديث أكثر من خمس دقائق، وكان مما قالته: "أرجو أن يكون في وسعك أن تشفي كنث شيئا فشيئا من تلك العادة الجنونية عادة الأخذ والرد في المسائل التي يستطاع الفصل فيها ببضع كلمات، ولم تكن

هذه عادته من قبل، وإذا كانت هذه العادة تلازمه في أعمال مهنته فسيفقد لا محالة جميع عملائه بعد قليل ... نعم، أرجوك أن تأتي يا عزيزتي إذا وجد لديك متسع من الوقت نقضي معا بضع دقائق، وما من شك في انه سيجيئ إلي وأنت عندي" وكانت نغمة مسز أشبي الحنونة يتردد صداها في الحجرة الساكنة، فيعيد الثقة والطمأنينة إلى نفس شارلوت في أثناء استعدادها.

ودق التليفون حوالي الساعة السابعة فهرولت إليه وهي موقنة أنها ستعرف وقتئذ شيئا عن زوجها! ولكن الذي دق لم يكن إلا أمينة سره تقول إن مستر أشبي لم يعد، ولم يرسل لهم أية إشارة، وإنها رأت من واجبها قبل أن يغلق باب المكتب أن تبلغ ذلك إلى مسز أشبي، وردت عليها شارلوت وهي في سرور متكلف "حسن، لا ضير في هذا، وأشكرك كثيرا!" ثم وضعت السماعة ويدها ترتجف من شدة الاضطراب، وقالت في نفسها إنه قد يكون عند والدته في تلك الساعة، فما كان منها إلا أن أغلقت الأدراج وحقائب الملابس، ولبست قبعتها ومعطفها، ومرت بمخدع الأطفال لتقول لمن فيه أنها ستقضي في خارج الدار بضع دقائق تزور فيها جدة الأطفال.

وكانت مسز أشبي تسكن بالقرب من منزلها، وخيل إلى شارلوت وهي سائرة في غسق ليل الربيع أن كل من تشاهده مقبلا نحوها هو زوجها، ولكنها لم تقله في الطريق، ولما دخلت دار حماتها وجدتها بمفردها، وعرفت أن كنث لم يكلمها ولم يأت إليها، وكانت مسز أشبي الكبرى تجلس بجانب نارها المشتعلة وإبر تطريزها تبرق في يديها النشيطتين، وكان وجود شارلوت إلى جانبها كافيا لأن يبعث الطمأنينة في قلب الزوجة الشابة، ولكنها أحست مع ذلك بان من أعجب الأشياء أن يغيب كنث النهار كله دون أن يقول

كلمة عن سبب غيابه لأمه أو لزوجته، على أن هذا كان أمرا متوقعا لأن المحامي الكثير العمل تقع على عاتقه أعمال كثيرة يضطر معها إذا ما غير نظامه فجاءة إلى أن يعيد ترتيب شئونه، ويوفق بين مصالحه توفيقا يستغرق منه كثيرا من الوقت، لأنه لم يكن قد فكر فيه أو أعد له العدة من قبل، ولعله ذهب لزيارة عميل له في ضاحية من ضواحي المدينة فاستبقاه العميل عنده، وذكرت والدته أنه قال لها مرة أنه موكل في قضية لشيخ غريب الأطوار في نيوجيرسي، واسع الثراء ولكنه بخيل بخلا يحول بينه وبين أن يدخل التليفون في بيته، وما من شك في أن كنث قد ألقت به المقادير في ذلك المكان.

ولكن شارلوت أحست أن أعصابها تزداد اضطرابا، ولما سألتها مسز أشبي عن ساعة سفرهما في غد اضطرت أن تقول لها إنها لا تعرف، وإن كل ما فعله كنث هو أنه أرسل إليها ليبلغها أنه ذاهب ليعد جوازي السفر، وكان مجرد نطقها بهذه الألفاظ كافية لأن يشعرها بغرابة موقفها، بل إن مسز أشبي نفسها لم تجد بدا من القول بان الأمر عجيب حقا، ولكنها أضافت من فورها أن كل ما يدل عليه هو كثرة ما لديه من الأعمال واضطراره إلى أن يفرغ منها كلها بسرعة.

"ولكن الساعة يا أماه قد أوشكت أن تدق الثامنة! وكان ينبغي له أن يدرك أن لا بد لي أن أعرف متى نبدأ سفرنا غدا".

"أكبر الظن أن السفينة لن تبحر إلا في المساء، والسفن تضطر أحيانا أن تنتظر المد حتى منتصف الليل! وما من شك في أن كنث إنما يعتمد على هذا، وهو رجل متزن العقل بلا ريب".

ووقفت شارلوت وقالت: "لا، ليس ذلك هو السبب، إن حادثا قد حدث له" وخلعت مسز أشبي منظاريها، وطوت خيوطها وقالت: "إنك إذا سمحت لنفسك بان تفكري مثل هذا التفكير –".

ألم يساورك شيء من القلق؟"

"إني لا يساورني قلق ما إلا إذا لم يكن منه بد، وأحب أن تدقي الجرس وتطلب العشاء، فستبقين هنا حتى نتعشى معا، وما من شك في أنه سيمر بنا وهو في طريقه إلى المنزل".

وأدارت شارلوت رقم تليفون منزلها، وأجابتها الخادمة بأن مستر أشبي لم يعد ولم يتحدث إلى المنزل، وقالت إنها ستخبره متى عاد بأن مسز أشبي ستتعشى في بيت والدته، ولحقت شارلوت حماتها إلى المطعم، وجلست وهي في شدة القلق أمام صفحتها الفارغة، بينما كانت مسز أشبي تتناول طعامها القليل الأصناف الحسن الإعداد في هدوء وفي شهية، وقالت لها: "إن عليك أن تأكلي بعض الطعام، وإلا صرت أسوأ حالا من كنث ... نعم هات مقدارا آخر قليلا من الأسفرغس يا جين"

وأصرت على أن تتناول شارلوت كوبة من شراب منعش، ثم عادت إلى حجرة الاستقبال حيث أشعلت الخادمة النار، ورتبت الوسائد التي كانت على كرسي مسز أشبي للساند، وبدا لهما المكان عاديا أمينا، ولكن في مكان ما خارج الدار، وفي ظلام الليل وغموضه وخفاياه، يستتر جواب ما تحدث به المرأتان نفسهما، كأنه شبح غامض لا تدركان حقيقته يحوم حول عتبة الدار.

وأخيرا انتفضت شارلوت واقفة وقالت: "خير لي أن أعود إلى منزلي، إن كنث لا بد أن يعود في هذه الساعة إلى منزله مباشرة".

وتبسمت مسز أشبي ابتسامة الموافقة على هذا الطلب وقالت: "لا نزال بداية الليل يا عزيزتي، غن عصفورين مثلنا لا يحتاجان في عشاءهما إلى وقت طويل"

فأجابتها شارلوت: "إن الساعة قد جاوزت التاسعة" وانحنت لتقبل حماتها ثم أتمت حديثها قائلة: "والحق أني لا أستطيع البقاء أكثر مما بقيت".

ونحت مسز أشبي تطريزها، ووضعت كلتا يديها على ذراعي كرسيها، وقالت وهي تهم بالوقوف: "سأذهب معك".

وعارضت شارلوت في هذا، وقالت إن الوقت متأخر، وإن ذهابها غير ضروري، وإنها ستعود إليها متى وصل كنث إلى المنزل، ولكن مسز أشبي كانت قد دقت الجرس تستدعى خادمتها، وكانت تعرج قليلا فوقفن مستندة إلى عصاها بينما كانت الخادمة تأتي لها بمعطفها، فلما جاءت به قالت وهما تدخلان سيارة قد استدعيت لهما "إذا جاء مستر كنث فقولي له أن يلحق بنا في منزله" وبينما كانتا في السيارة حمدت شارلوت الله أنها لم تعد إلى منزلها بمفردها، ذلك أن وجود مسز أشبي بقربها في تلك اللحظة كان من شأنه أن يهدئ ثائرتها ويزيل بعض مخاوفها لأنها تجد في بريق عينيها ونضارة وجهها ما يطمئنها، ولما وقفت السيارة عند باب الدار وضعت مسز أشبي يدها على يد شارلوت مشجعة ومطمئنة وقالت: "سترين أن في البيت رسالة تنتظرك".

وفتح الباب حينما دقت شارلوت الجرس ودخلت السيدتان وقلب شارلوت يدق دقا عنيفا، وكانت ثقة حماتها قد بدأت تتمشى في أعصابها.

وكررت مسز أشبي قولها: "سترين – سترين".

وقالت الخادمة وهي تفتح الباب إن مستر أشبي لم يأت بعد وغنه لم يبعث برسالة ما"

وقالت أمه: "آنت واثقة من أن المسرة صالحة للاستعمال.؟"

فأجابتها الخادمة قائلة إنها واثقة من أنها كانت صالحة منذ نصف ساعة على الأكثر، وإنها ستذهب من فورها وتستوثق من هذا، وأسرعت إلى حيث كانت المسرة وأخذت شارلوت تخلع قبعتها ومعطفها، وبينما هي تفعل هذا جاءت منها التفاتة فوقع نظرها على نضد الردهة، وإذا هي تجد عليها مظروفا رمادي اللون، وعليه اسم زوجها مكتوب بحروف غير ظاهرة، فصاحت، وقد أدركت فجاءة أنها الآن قد دخلت الدار لأول مرة منذ شهور دون أن تحدثها نفسها بان مظروفا رماديا قد يكون على النضد.

وسألتها مسز أشبي وهي تنظر إليها في دهشة: "ما هذا يا عزيزتي؟".

ولم تنبس شارلوت ببنت شفة، بل أخذت الخطاب ووقفت تحدق فيه كأنها تريد أن تنفذ نظراتها إلى ما بداخله، ثم خطر لها خاطر سريع فالتفتت وعرضت الخطاب على حماتها.

وسألتها: "أتعرفين هذا الخط؟"

وتناولت مسز أشبي الخطاب، وأخذت تبحث بيدها الأخرى عن

منظاريها، ولما أن وضعتها على عينيها رفعت الخطاب أمام الضوء، وصاحت: "يا عجبا" ثم صمتت، ولاحظت شارلوت أن الخطاب يرتجف في يدها وهي في العادة ثابتة مطمئنة، وقالت مسز أشبي آخر الأمر بصوت منخفض: "ولكن هذا الخطاب معنون باسم كنث" ودلت نغمتها على أنها ترى أن السؤال الذي وجهته إليها كنتها سؤال فيه شيء قليل من عدم اللياقة.

فردت عليها شارلوت وقد حزمت أمرها فجاءة: "نعم، ولكن لا عليك من هذا، فأنا أحب أن أسألك – هل تعرفين من كتب هذا؟".

وأرجعت مسز أشبي إليها الخطاب وقالت بصوت واضح: "لا"

وكانت السيدتان قد انتقلتا في أثناء هذا الحديث إلى حجرة المكتبة، وأنارت شارلوت الحجرة ثم أغلقت الباب، وكانت لا تزال تمسك الخطاب بيدها وقالت لوالدة زوجها بصراحة أنها ستفض غلاف الخطاب.

فرأت الدهشة بادية في نظراتها وهي تقول لها: "ولكن يا عزيزتي، هذا خطاب لم يرسل إليك؟ إنك لا تستطيعين أن تفتحيه".

"آه! كأن هذا يهمني في هذه الظروف!" وكانت وهي تقول هذا لا تنفك تحدق في عيني مسز أشبي: "قد أعرف من هذا الخطاب أين كنت الآن!".

وتبدلت نضارة وجه مسز أشبي على الفور وامتقع لونها وخيل إلى شارلوت أن وجهها قد أخذ يتجعد ويذبل: "وكيف تعرفين منه هذا؟ وما الذي يحملك على أن .... ....؟ إنك لن تعرفي منه شيئا قط".

وأزحت شارلوت عينيها عن ذلك الوجه الذي تبدل لساعته، ثم قالت

وكأن وحيا هبط عليها فأنطقها بهذا القول: "إذن فأنت تعرفين هذه الكتابة حق المعرفة".

"أعرف الكتابة؟ وكيف أعرفها؟ إن كل ما أعرفه ... من الرسائل التي تأتي إلى والدي" ثم سكتت مسز أشبي ونظرت إلى كنتها نظرة المتوسلة، بل أكاد ... ... المتوجسة.

وأمسكت شارلوت بعصمها وقالت: "أماه! ماذا تعرفين؟ خبريني! بحقك خبريني!"

"أني أعتقد أن لا خير مطلقا تعقب فتح امرأة رسائل زوجها من وراء ظهره"

ووقع هذا القول على أذني شارلوت المتوترتين الأعصاب موقع العبارات التافهة التي يلتقطها الصبية من كتاب للأمثال ليحشروها في كتابتهم، وضحكت ضحكة متكلفة قلقة وأرخت قبضتها على معصم حماتها وقالت: "أهذا كل ما في الأمر؟ إن هذا الخطاب لا يمكن أن يكون من ورائه خير وساء فتحته أو لم أفتحه، أني أعلم هذا حق العلم، ومهما يكن من وراءه من شر فإني أريد أن أعرف ما فيه" وكانت يداها ترتجفان وهما قابضتان على المظروف، ولكنهما ثبتتا في تلك اللحظة، كما هدأ صوتها وزال منه الاضطراب، وظلت تحدق في وجه مسز أشبي: "إن هذا هو تاسع خطاب معنون بنفس هذا الخط جاء إلى كنث منذ اقتربت به، وهو على الدوام في مثل هذا الغلاف الرمادي، ولقد عنيت بإحصاء هذه الخطابات، لأنه كان يبدو بعد كل واحد منها كأنه إنسان صدم صدمة عنيفة، وهو يقضي عدة

ساعات قبل أن يفيق من أثرها فيه، ولقد نبهته إلى هذا، وقلت له أن لا بد لي من معرفة من يرسل إليه هذه الخطابات، لأن في وسعي أن أرى أنها تقتله قتلا، ولكنه لا يرد على أسئلتي ويقول إنه لا يستطيع أن يطلعني على شيء ما يختص بهذه الرسائل، غير أنه وعدني في الليلة الماضية أنه سيسافر معي — فرارا منها".

وكانت مسز أشبي قد مشت بخطى مرتجفة وئيدة نحو أحد الكراسي الساندة، وجلست عليه وهي محنية الرأس على صدرها، ثم تمتمت قائلة: "آه"

"إذن لقد فهمت الآن".

"هل قال لك إنه يريد أن يسافر ليبتعد عنها؟"

"لقد قال ليبتعد — ليبتعد، لقد كان ينتحب انتحابا كاد يعجزه عن الكلام، ولكني أخبرته أني أعرف السبب".

"وماذا قال؟"

"لقد ضمني بين ذراعيه، وقال إنه سيذهب إلى أي مكان أريد"

فقالت مسز أشبي: "الحمد لله!" ثم ساد صمت عميق ظلت بعده جالسة وهي مطرقة برأسها، وعيناها تتجنبان النظر إلى عيني كنتها، ثم رفعت آخر الأمر رأسها وقالت: "وهل أنت واثقة من أن عدد هذه الرسائل قد بلغ تسعا؟"

"بالضبط، وهذه هي التاسعة لقد أحصيتها وعددتها عدا".

وهل رفض أن يقول لك شيئا عنها؟"

"رفض رفضا باتا"

وقالت مسز أشبي وهي تخرج الألفاظ من بين شفتيها الممتقعتين الملتصقتين: "ومتى بدأت هذه الرسائل تصل إليه؟ هل تذكرين هذا؟"

وضحكت شارولت مرة أخرى: "أأذكر؟ وصلت أولادها في الليلة التي عدنا فيها بعد أن قضينا شهر العسل؟"

"وظلت تصل من ذلك الوقت البعيد؟" ثم رفعت مسز أشبي رأسها وقالت وقد دب فيها النشاط.

"إذن — نعم افتحيها".

وكانت شارلوت لا تتوقع قط أن تقول مسز أشبي هذه العبارة، فأحست بأن الدم قد صعد إلى صدغيها، وبدأت يداها ترتجفان مرة أخرى، وحاولت أن تضع إصبعها بين طبقتي المظروف، ولكنه كان محكم التصميغ إحكاما اضطرها إلى البحث عن مشرط زوجها على مكتبه، وبينما هي تدفه الأدوات التي مستها يدا زوجها من وقت قصير سرت في جسمها قشعريرة كالتي تسري في جسم من يمس أدوات إنسان قضى نحبه حديثا، وسرى صوت تمزيق الورق وهي تقطع المظروف في الغرفة الساكنة كما يسري صياح آدمي، وأخرجت الورقة التي بداخل المظروف ويميت شطر المصباح.

"وسألتها مسز أشبي بصوت خافت: "ماذا وجدت؟"

ولم تتحرك شارلوت من مكانها ولم تجر جوابا، بل ظلت مطرقة برأسها

تحدق في الورقة وهي مقطبة الجبين، وأخذت تقر بها شيئا فشيئا إلى الضوء، إن شيئا يحول بين عينيها وبين الكتابة، أو لعل ضوء المصباح المنعكس على الورقة الملساء قد يبهر عينيها، فلم تستطع أن ترى إلا بضع شرطات حائلة اللون مضطربة لا يستطيع أحد أن يقرأها ...

وقالت: "إني لا أستطيع حل هذه الرموز".

"ماذا تقصدين يا عزيزتي؟"

"إن الكتابة غير واضحة إلى حد ... انتزري"

وعادت إلى النضد وجلست بالقرب من مصباح المكتب ووضعت الرسالة تحت منظار مكبر، وكانت في أثناء هذا العمل كله تدرك أن حماتها تراقبها عن كثب.

وقالت مسز أشبي أخيرا: "ماذا وجدت؟"

"إن الكتابة لا تزال غير واضحة، ولا أستطيع قراءتها"

"أتقصدين أن الورقة بيضاء لا شيء فيها على الإطلاق؟"

"لا، ليست بيضاء، إن فيها كتابة، وفي وسعي أن أتبين فيها عبارات مثل "لي" آه وها هي ذي "تعال" قد تكون هذه "تعال".

ووقفت مسز أشبي على حين غفلة ووجهها أشد امتقاعا من ذي قبل، وتقدمت نحو النضد واتكأت عليه بكلتا يديها، وزفرت زفرة عميقة، وقالت وكأنها تحاول على الرغم منها أن تبدل مجهودا بغيضا إليها: "اسمحي لي أن أرى الرسالة".

وأحست شارلوت بأن امتقاع لونها قد تسرب إليها أيضا، وقالت في نفسها "إنها تعرف جلية الأمر" ودفعت الخطاب إليها من فوق النضد، أطرقت حماتها برأسها في اتجاهه وهي صامتة دون أن تمسه بيديها الصفراوين المجعدتين.

ووقفت شارلوت ترقب حماتها كما كانت هي ترقبها قبل وهي تحاول أن تقرأ الخطاب، وبحثت مسز أشبي عن منظاريها، ووضعتهما على عينيها وانحنت أكثر من ذي قبل على الورقة المبسوطة أمامها، وكأنها تتحاشى أن تمسها بيدها، وسقط ضوء المصباح على وجهها مباشرة، وأخذت شارلوت تصور لنفسها ما عسى أن يكون كامنا وراء هذه التجاعيد الواضحة من خفايا عميقة .. ولم تكن قد شاهدت من قبل معارف حماتها إلا وهي موقنة أنها تعبر عن أحسن العواطف وأكثرها صراحة – تعبر عن الحب الذي يملأ قلبها، وعن الرقة والعطف الشديدين وإن كان يظهر عليها من حين إلى حين ومضة من الغضب الذي لا بأس به؟ أما الآن فقد بدت لها وعليها سمات الخوف والكراهية والرعب، وكأن الأرواح التي تتصارع في داخلها قد قلبت سحنتها وشوهتها حتى تماثل صورتها، ثم رفعت رأسها أخيرا وقالت: "لا أستطيع! لا أستطيع!" قالت هذا بصوت الطفل المكروب الحزين.

"وأنت أيضا لا تستطيعين قراءة الرسالة؟"

وهزت رأسها، وأبصرت شارلوت دمعتين تنحدران على خدها.

وقالت شارلوت في إصرار شديد وشفتاها ترتجفان: "وإن كنت قد ألفت رؤية هذا الخط؟"

"ولم تقبل مسز أشبي من كنتها هذا التحدي وقالت: "لا أستطيع أن أقرأ فيها شيئا مطلقا"

"ولكنك تعرفين من كتبها"

ورفعت مسز أشبي رأسها في رجل، وتسللت عيناها القلقتان، فألقتا نظرة الخائف لمرتاع على جوانب الحجرة التي ألفتها من زمن بعيد وقالت: "وأني لي أن أعرف؟ لقد أدهشني في بادئ الأمر ..."

"أدهشك وجه الشبه؟"

"نعم ظننت —"

"خير لك أن تصارحيني القول يا أماه؟ لقد عرفت من فورك أنها بخطها هي: "انتظري يا عزيزتي — انتظري".

"ماذا أنتظر؟"

ورفعت مسز أشبي رأسها إلى أعلى، ومدت عيناها لشارلوت، ثم ارتفعتا إلى الجدار العاري القائم وراء مكتب زوجها.

وكانت شارلوت تتبع بعينها نظرات حماتها، فضحكت ضحكة اتهام عالية: "لا حاجة بي إلى الانتظار أكثر مما انتظرت! لقد أجبتني الآن عن سؤالي! إنك تنظرين إلى المكان الذي كانت تعلق فيه صورتها على الجدار!"

ورفعت مسز أشبي يديها وهي تهمس محذرة "صه"

وصاحت شارلوت قائلة: "لست في حاجة لأن تتصوري أن شيئا ما يخيفني بعد الآن".

وكانت حماتها لا تزال متكئة على النضد، وتحركت شفتاها حركة المحزون المكروب وقالت: "ولكننا سائرتان بخطى سريعة نحو الجنون — لقد أوشكنا

كلتانا أن نجن، إننا نعرف أن هذه الأشياء مستحيلة".

ونظرت إليها كنتها نظرة المشفق المرتاع: "لقد عرفت من زمن بعيد أن كل شيء يمكن أن يقع".

"حتى أن؟"

"نعم، حتى هذا نفسه".

"ولكن هذا الخطاب – إني لا أجد شيئا في هذا الخطاب".

"وقد يكون فيه شيء له، أني لي أن أعرف؟ أذكر أنه قال لي في يوم من الأسام إنك إذا ألفت نمطا من الكتابة فإن في وسعك أن تقرئي أية شرطة منها مهما كانت حائلة، وه أنا ذا أفهم الآن ما كان يرمي إليه بهذا القول، لقد ألف هذه الكتابة".

"ولكن الشرطات القليلة التي أستطيع أن أتبينها جد حائلة، وما من أحد يستطيع قراءة هذه الرسالة".

وضحكت شارلوت مرة أخرى وقالت وهي تصر على أسنانها: "أظن أن كل ما يتصل بأطياف الموتى مصفر حائل".

"آه! يا ابنتي، لا تنطقي بهذا القول".

"لماذا لا أنطق به والجدران العارية نفسها تصيح به وتعلنه، وأي فرق بين أن تكون رسالتها واضحة مقروءة لك أو لي؟ وإذا كان في وسعك أنت أن ترى وجهها على هذا الجدار العاري، فكيف لا يقرأ هو كتابتها على هذه الورقة الخالية؟ ألا ترين أنها في كل مكان في هذا البيت، وأنها أقرب إليه مما

كانت قبل لأنها قد أمست ولا يراها أحد سواه؟ واستقلت شارلوت على أحد المقاعد، وغطت وجهها بيديها، وتملكتها عاصفة من النحيب ارتجف لها جسمها كله من قمة الرأس إلى أخمص القدم، ثم أحست بشيء يلمس كتفها فرفعت عينيها فرأت حماتها منحنية عليها.

وبدا لها أن وجه مسز أشبي قد صغر وذبل أكثر من ذي قبل، ولكنها استعادت نظراتها الهادئة المألوفة، وكانت شارلوت طوال آلامها وأحزانها تحس بقوة هذه الروح الثالثة وأثرها فيها.

"غدا – غدا، سترين، سيتضح لك الأمر غدا بعض الوضوح"

وقاطعتها شارلوت قائلة: "يتضح لي الأمر، لست أدري منذ الذي سيوضح الأمر لي؟"

وتراجعت مسز أشبي إلى الوراء ووقفت وقفة الشجاع، وقالت بصوت قوي غير متلعثم: "سيوضحه لك كنث نفسه"، ثم واصلت المرأة العجوز قولها: "وإلى أن يأتي الغد هيا بنا إلى العمل، إن علينا أن نبلغ الشرطة وأن نبلغها الآن دون أن نتريث لحظة واحدة، إن علينا أن نفعل كل شيء –كل شيء"

ووقفت شارلوت وقفة جامدة بطيئة وأحست أن مفاصلها قد يبست حتى أضحت كمفاصل المرأة العجوز: "هل تقصدين أننا يجب أن نعمل بالضبط كما لو كان هناك فائدة في أن نعمل شيئا ما؟"

وصاحت مسز أشبي في حزم وثبات: "نعم"، وذهبت شارلوت إلى المسرة ورفعت السماعة.

# في الغسق



**للكاتب الإنجليزي/ "ساكي" (ه. ه. منرو)(*)**

**١٨٧٠ - ١٩١٦**

جلس نورمان جورنسي في الحديقة متجها بظهره إلى شريط من العشب الأخضر يحيط به سور الحديقة، وعن يمينه ركن هايد بارك بقعقعته وضوضاء عرباته.

وكانت الساعة حوالي منتصف السابعة من مساء يوم من أيام مارس الأولى، وقد بدأت الظلمة تلف المكان، ظلمة يخففها ضوء القمر الشاحب ومصابيح الشارع المتناثرة، وكان الطريق العام والمماشي تبدو خالية، بيد أنك لو دققت النظر لرأيت أشباحا تتحرك في سكون خلال الضوء القليل، أو تتفرق على المقاعد والكراسي، لا تستطيع أن تميزها إلا بصعوبة من بين الظلال التي يجلسون فيها.

وسر المنظر جورتسي وواءم ما كان يشعر به وقتئذ من كآبة، فقد كان الغسق في رأيه ساعة المهزوم، فالرجال والنساء الذين ناضلوا فهزموا، والذين يخفون الخائب وآمالهم الذاهبة عن عيون الفضوليين، يخرجون في هذه الساعة،

---

(*) من أسرة عمل كثير من أفرادها في الجندية، ولد في بورما ثم عاد إليها مرة أخرى حيث عمل فترة قصيرة في الشرطة، ورجع بعدئذ إلى لندن في عام ١٨٩٦ وبدأ يراسل صحيفة وستمنستر غازيت Westminster Gazette، وتمتاز قصصه القصيرة بروعتها وختامها المدهش غير المتوقع، وقتل منرو في الحرب العالمية الأولى.

حين لا تستطيع أن تلاحظ ملابسهم الرثة وأكتافهم المنحنية وعيونهم الحزينة، أو على الأقل لا تعرفهم.

ولم يكن المتجولون في الغسق يحبون أن تأخذهم النظرات المتطلعة، فكانوا يخرجون بالليل كالخفافيش، لينالوا شيئا من البهجة في أرض المتعة، بعد أن خلت ممن يحق لهم ارتيادها، ومن وراء حاجز الأشجار كانت تبدو أضواء باهرة وتسمع ضجة الطريق، وكانت النوافذ تضيء خلال الغسق تكاد تمزقه، وتكشف عن أماكن الذين ثبتت أقدامهم في نضال الحياة، أو الذين لم يضطروا بعد إلى الاعتراف بالهزيمة على الأقل.

هكذا كان خيال جورتسي يصور له الأشياء وهو جالس على المقعد في الممشى المهجور، وكان مزاجه يضعه في تلك اللحظة في صف المهزومين، لم يكن في ضيق مادي، ولو أراد لمضى في الطرقات الضيقة ذات الضوضاء، ولأخذ مكانة بين الطبقات المتزاحمة من الذين يتمتعون بالرخاء أو يجاهدون في سبيله، لكنه فشل في تحقيق أمل كان يساوره، وفي تلك اللحظة كان آسي القلب مكتئبا، ولا يرى ما يمنعه أن يسر سرور الساخرين بالنظر إلى زملائه الجائلين حين يمرون بالأجزاء المظلمة بين المصابيح.

وجلس إلى جانبه شيخ يبدو عليه مظهر الاستسلام للمقادير، ولعل هذا المظهر كان آخر ما بقى من احترام النفس لرجل لم يعد يرى نفعا في تحدي الناس أو الأشياء، لا تستطيع أن تسمي ملابسه رثة، فقد كان على الأقل لا يخجل من الظهور بها في النور، لكنك لا تستطيع أن تتخيل الشخص الذي يرتديها واقفا في متجر أنيق يشتري صندوقا من الحلوى أو

طاقة من الأزهار، ولا يسعك إلا أن تعرف انه واحد من أفراد الفرقة المنسية التي لم تعد تطرب أحدا، ولما قام لينصرف تخيله جورتسي راجعا إلى منزل هو فيه من سقط المتاع، أو إلى فندق لا يتعدى اهتمام أصحابه به حد التساؤل: هل يؤدي لهم أجر هذا الأسبوع أو لا يؤديه؟ واختفى شبحه المبتعد في بطء بين الظلال، واحتل مكانه في الحال شاب يبدو منهدم الثياب لكنه مكتئب كسابقه، وزفر زفرة ألم وهو يرمي بجسمه على المقعد، كأنما هو يعلن أن الدنيا لا تقبل عليه.

وأدرك جورتسي أن لا بد له أن يفترض أنه قد لاحظ هذا المشهد، وأن عليه أن يقول شيئا فقال:

"أنك لا تبدو على أحسن حال"!

فالتفت إليه الشاب ونظر إليه نظرة ملؤها الصراحة نبهته إلى أن يكون حذرا في خطابه وقال:

"لن تكون في أحسن حال لو كنت مكاني وفي المأزق الذي أنا فيه، لقد فعلت أسخف ما يمكن أن يفعله إنسان في حياته".

فسأله جورتسي بلهجة هادئة:

"ماذا فعلت؟"

"غادرت بلدتي بعد ظهر اليوم قاصدا النزول في فندق ... باتاجونيان في ميدان "يوركشير"، ولكني حين وصلت إليه وجدته قد هدم منذ أسابيع وحلت مكانه دار للخيالة، وأوصاني سائق السيارة أن أنزل بفندق آخر يبعد

عنه قليلا وأخذني إليه، وأرسلت خطابا إلى أسرتي ذكرت لهم فيه عنواني ثم نزلت لأشتري قطعة من الصابون، فقد نسيت أن أحضر شيئا منه معي، ولا أحب استعمال صابون الفنادق، ثم تمشيت قليلا، وأخذت كأسا في مشرب قريب، ونظرت إلى بعض وجهات المتاجر، فلما أردت العودة أدركت فجاءة أني لا أذكر اسم الفندق ولا عنوانه، وكان مأزقا حرجا لشخص مثلي لا أصدقاء له ولا معارف في لندن، وفي وسعي بطبيعة الحال أن أرسل إلى أسرتي لتوافيني بالعنوان، لكن الخطاب الذي بعثت به إليهم لن يصلهم إلا في الغد، ثم أني الآن بلا مال، فقد خرجت ومعي شلن واحد ذهب في شراء الصابون والشراب، وه أنا ذا أجول في الطرقات وليس معي الآن إلا بنسان، ولا أعرف مكانا أقضي فيه ليلتي".

ثم سكت سكوتا ذا مغزى، وأضاف قائلا في لهجة امتعاض: "لعلك تعتقد أني قد نسجت لك حكاية من الخيال"، فقال جورتسي:

"ليست قصتك صعبة التصديق، وأنا نفسي أذكر أني فعلت شيئا مثل هذا في إحدى العواصم الأجنبية، وكنا اثنين، فكانت حالنا أشد حرجا من حالك أنت، لكن من حسن الحظ أننا تذكرنا أن الفندق يقع على شاطئ نهر ما، فلما أن عثرنا على النهر استطعنا أن نجد طريقنا إلى الفندق".

وطرب الشاب لهذه الذكرى وقال:

"لو كنت في بلد غريب لما اهتممت، لأن في استطاعتي في هذه الحال أن ألجأ إلى قنصلية بلدي، وهناك كنت أحظى بالمعونة المطلوبة، أما هنا والإنسان في بلده فإنه يحار إذا وقع في مثل هذا المأزق، فإن لم أجد شخصا

منصفا يصدق قصتي ويقرضني بعض المال فأغلب الظن سأقضي ليلتي على جسر النهر، ومع ذلك فإني ليسرني انك لا تظن قصتي بعيدة الاحتمال" وجهد أن يكون في ملاحظته الأخيرة قدكبير من الحرارة، مؤملا أن يكون جورتسي هو هذا الشخص المنصف.

فقال جورتسي في بطء: "طبعا، أن نقطة الضعف في قصتك أنك لا تستطيع إبراز الصابون".

فاعتدل الشاب في جلسته مسرعا وأخذ يبحث في جيوب معطفه، ثم قفز من مكانه وهو يقول غاضبا: "لا بد أني فقدتها".

فقال جورتسي: "إن فقدك عنوان الفندق وقطعة الصابون في ساعة واحدة لينم عن إهمال شديد".

لكن الشاب لم ينتظر حتى يسمع نهاية الملاحظة، بل مضى بسرعة مرفوع الرأس وعليه سيماء الحنق.

فقال جورتسي: "مسكين إن خروجه لشراء صابونة كان محور قصته، لكن هذه النقطة التافهة هي التي قضت عليها، ولو كان له أدنى حظ من الذكاء لحمل معه صابونة ملفوفة في ورقة من ورق المتاجر، ولكان عبقريا في خطته، والعبقرية في هذه الحال هي القدرة التي لا قدرة بعدها على الاحتياط.

وهم جورتسي بالانصراف، لكن صيحة أفلتت منه، فقد رأى على الأرض بجانب مقعده لفافة عليها اسم أحد المتاجر ولا يمكن أن تكون إلا قطعة من الصابون، وما من شك في أنها قد وقعت من جيب معطف الشاب حين رمى بنفسه على المقعد.

وما هي إلا لحظة حتى كان جورتسي يذرع الطريق المظلم وهو بادئ القلق يبحث عن شاب في معطف نظيف، ولما أوشك أن ييأس من العثور عليه رآه واقفا على جانب الطريق متحيرا كأنه يفكر، هل يمضي في طريق الحديقة أو يتخذ طريقه إلى "جسر الفرسان"، والتفت مغضبا حين ناداه جورتسي وفي يده قطعة الصابون.

"ها قد وجدت الدليل القاطع على صدق قصتك، وما من شك في أنها وقعت من جيب معطفك حين كنت جالسا على المقعد، ولقد رأيتها على الأرض بعد أن قمت، أرجو أن تغفر لي عدم تصديقي إياك، لكن الظواهر كلها كانت في الحقيقة لا تريدك.

والآن وقد جاءت قطعة الصابون بالبرهان القاطع فليس لي إلا أن أصدق قولك، وإذا كان جنيه يساعدك فإني أكون سعيدا لو قبلته" ولم يترك الشاب سببا للشك فيما ينتوبه، فقد أخذ الجنيه لمساعدته ووضعه في جيبه.

وواصل جوتسي حديثه قائلا: "وهاك بطاقة عليها عنواني، فتستطيع أن ترد المال في أي يوم من هذا الأسبوع، وها هي ذي قطعة الصابون، فلا تضعها مرة أخرى فهي نعم العون لك.

فأجاب الشاب:

"كان من حسن حظي أنك وجدتها"، وأخذ يشكر جورتسي وقد غص بريقه، وأسرع في اتجاه جسر الفرسان.

وقال جوتسي لنفسه: "يا له من بائس، لقد أوشك أن يبكي، ولست أعجب لذلك فقد كان خلاصه من ورطته مفاجئا، وإنه لدرس لي في ألا

أتسرع في الحكم على الناس بالظواهر".

واتجه عائدا إلى المقعد حيث المأساة الصغيرة، وإذا هو يجد شيخا يجد في البحث حول المقعد وتحته، وعرف فيه من كان جالسا إلى جانبه قبل هذا الشاب فسأله: "هل فقدت شيئا يا سيدي؟"

فأجاب الشيخ: "نعم يا سيدي قطعة من الصابون!"

## استيفان زفيج(*)

١٨٨٠ – ١٩٤٢

دخل مقصورتنا في أول محطة بعد "درسدن" رجل كبير السن، وابتسم بلطف إلى الجالسين، وخصني بإيماءة من رأسه كأنه يعرفني من قبل ولما رأى حيرتي ذكر لي اسمه، فعرفته بطبيعة الحال، لقد كان من أشهر الخبراء وتجار التحف الفنية في برلين، وقد اشتريت منه قبل الحرب بعض الكتب النادرة والمخطوطات، واتخذ مكانه في المقعد الخالي أمامي، وتحدثنا مدة عن أشياء لا تستحق الذكر، ثم غير موضوع الحديث فشرح لي الغرض من الرحلة التي كان عائدا منها، فقد كانت من أغرب ما مر به في خلال سبع وثلاثين سنة قضاها بائعا للقطع الفنية، وحسبي هذا مقدمة، فسأدعه يقص القصة بألفاظه هو دون ذكر علامات الاقتباس لأجنب التعقيد، قال:

أنك لتعرف ما حدث لتجارتي مذ ذهبت قيمة المال أدراج الرياح، لقد صار لأغنياء الحرب غرام بأعمال كبار الفنانين، وبالسجاجيد القديمة وغيرها، وليس من اليسير أن تشبع رغباتهم، وغنه ليصعب على رجل مثلي يفضل أن يبقى أحسن ما عنده لمتعته هو واستعماله أن يرى منزله وقد أوشك أن

---

(*) ولد في فينا من أبوين يهوديين، وقد أصدر عدد كبير من الروايات والمسرحيات والدراسات النقدية والتراجم، ولكن أعظم ما يشتهر به قصصه القصيرة، وهي التي يفضلها هو عن جميع فنون الأدب، ومن أقواله في هذا المعنى "لقد كان يبدو لي على الدوام أن الإيجاز أهم العناصر الجوهرية في الفن"

يتعرى من كل شيء، ولو جاريناهم لاشتروا أزرار كم قميصي، ومصباح مكتبي، لقد أصبح من الصعب في هذه الأيام أن يجد الإنسان سلعا لبيعها، قد يبدو لك لفظ "سلع" غريبا في هذا المقام، لكن يجب أن تلتمس لي العذر، فقد اخترت لك اللفظ الذي يستعمله النوع الجديد من العملاء.

ويستحيل أن تقاوم شراهة هؤلاء الناي في تبذير أموالهم، فقد خيل إلي وأنا أنظر حولي في تلك الليلة أن لم يبق شيء ذو قيمة أغلق عليه أبواب حانوتي، لقد كانت مهنتي هذه مهنة جميلة ورثتها أبا عن جد، لكن الحانوت قد امتلأ بالتوافه التي كان البائع الجائل قبل سنة ١٩١٤ يأنف أن يبيعها على عربة يد.

وبدا لي في هذه الورطة أن أقلب صفحات دفتر حسابات عملائنا القدامى لعلي أجد من بينهم من يرغبون في بيع ما اشتروه في أيام رغدهم، نعم إن سجل هؤلاء المشترين القدامى ليشبه كل الشبه مكان واقعة حربية انتشرت فيه جثث القتلى، والحق أني سرعان ما أدركت أن معظم هؤلاء قد ماتوا أو أضحوا في حالة من البؤس اضطروا معا إلى بيع كل شيء ذي قيمة لديهم، على اني وجدت جزمة من الخطابات لرجل إن كان لا يزال حيا فهو بلا ريب أقدم العملاء، لكنه كان من الكبر بحيث نسيته، إذ لم يشتر مني شيئا بعد قيام الحرب صيف سنة ١٩١٤، نعم إنه كبير جدا، فقد كانت أقدم الخطابات مؤرخة منذ اكثر من نصف قرن حين كان جدي يشرف على العمل، على أنني لا أتذكر قط أنني كانت لي به أية صلة في خلال السبع والثلاثين سنة التي كنت أعمل فيها بجد في المتجر.

وكانت كل الشواهد تدل على أنه واحد من أولئك الشواذ الغريبين الأطوار الذين كانوا على ظهر الأرض قبل الطوفان، والذين بقيت منهم أقلية في مدن الريف الألمانية، وكانت كتاباته كأنها منقوشة على اللوح، وكان يضع خطا بالمداد الأحمر تحت اسم كل تحفة يطلبها، وكان يكتب ثمنها بالأرقام والحروف معا حتى يمنع كل خطأ، وهذه الخصائص العجيبة مضافا إليها انه كان يستخدم الأوراق البيضاء الأولى من الكتب ليكتب عليها رسائله ويضعها في مظاريف مختلفة الأنواع تشير إلى أنه من أبخل خلق الله طرا.

وكان يوقع على الدوام باسمه ومن تحته "حارس الغابة وعضو المجلس الاقتصادي سابقا، ملازم أول سابقا، حامل الطبقة الأولى من وسام الصليب الحديدي"

ولما كان قد اشترك في حرب سنة ١٨٧٠ – ١٨٧١ فهو الآن يناهز الثمانين من العمر.

وكان من الجلي أنه رغم شحه وشذوذه ذو علم وذوق وخبرة في جمع الصور واللوحات، وإذا ما درس الإنسان ما اشتراه منها دراسة دقيقة – وكان مجموع ثمنها في بادئ الأمر قليلا – تبين له أن هذا القروي قد استحوذ على مجموعة من اللوحات وأمثالها تضارع أعظم ما ابتاعه منها أثرياء الحرب الذائعون الصيت، كان أتفه ما اشترى من قطع فنية في ذلك الحين يساوي اليوم مبالغ ضخمة، ولم أر ما يدعو إلى الظن أنه لم يعقد مثل هذه الصفقات في مكان آخر، ترى هل تبددت مجموعته؟ لقد كان اتصالي بسوق الفن منذ

آخر صفقة له يجعل من المتعذر أن تنتقل هذه المجمعة من يد إلى يد دون أن أعلم بذلك، وإذا كان قد مات فربما بقيت كنوزه سليمة في يد ورثته إلى اليوم.

واهتممت بالأمر اهتماما حملني على السفر في اليوم التالي (وهو أمس مساء) في رحلة إلى إحدى المدن القاصية في مقاطعة ساكسونيا، ولما غادرت محطة السكة الحديد الصغيرة ومشيت في الطريق الرئيسي بدا لي أن من المستحيل أن يكون لدى شخص يقطن مثل هذه المنازل مجموعة من الصور والنقوش أبدعها رمبرانت ودرورر ومانتجاس، لكني ذهبت إلى مكتب البريد لأسأل عنه، ودهشت حين علمت أن شخصا كان في وقت من الأوقات حارس غابة وعضوا في المجلس الاقتصادي يطلق عليه الاسم الذي ذكرته مازال حيا، ودلوني على مسكنه، ولا أكتمك أن ضربات قلبي قد أسرعت وأنا في طريقي إليه وكنا قبل الظهر بوقت كافي.

وكان الرجل الهاوي الذي أبحث عنه يقطن في الطابق الثاني من أحد المنازل غير المتينة البناء التي بنى منها المضاربون عددا كبيرا خلال العقد السابع من القرن الماضي، وكان يشغل الطابق الأول منه خياط، ورأيت في الطابق الثاني على الشمال لافتة باسم رئيس مكتب البريد، وعن يمينها لافتة من الرخام تحمل اسم الرجل الذي جئت أبحث عنه، وما أن دققت الجرس حتى أجابت سيدة عجوز بيضاء الشعر، وأعطيتها بطاقتي وسألتها هل السيد في البيت، ونظرت إلى نظرة شك، ثم نظرت إلى وجهي مرة أخرى، ذلك أن زيارة رجل من سكان العاصمة تبدو في هذه البلدة النائية المهجورة حادثا غريبا، وعلى أي حال فقد سألني في لهجة حاولت قد ما أمكنها أن تكون

لهجة ودية: هل يسمح بالانتظار دقيقة أو اثنتين في الردهة؟ واختفت داخل أحد الأبواب وسمعت همسا ثم صوتا عاليا لرجل يقول: تقولين السيد راكنر من برلين الخبير الشهير في التحف الفنية، إني ليسرني أن أراه بطبيعة الحال، ثم ظهرت المرأة العجوز من فورها ودعتني إلى الدخول؟.

فخلعت معطفي وتبعتها، وفي وسط الغرفة ذات الأثاث البسيط وقف رجل يستقبلني، كان هرما، لكنه جيد الصحة، وكان له شارب كثيف ويرتدي سترة شبه عسكرية، ومد كلتا يديه نحوي مظهرا منتهى الود، وكانت هذه منه حركة طبيعية غير متكلفة تختلف كل الاختلاف عن جموده في وقفته، ولم يتقدم نحوي ليستقبلني، فاضطررت – وأنا أحس أن كرامتي قد جرحت بعض الشيء – أن أتقدم إليه لأصافحه، ثم لاحظت أن يديه لم توضعا في يدي، بل انتظر أن أمسك أنا بهما، وبعد لأي أدركت ما غاب عنب، لقد كان أعمى.

لقد كنت من أيام طفولتي أجد نفسي في حيرة إذا وجدت مع أعمى، ولقد كان يحيرني ويربكني ويخجلني أن ألقي إنسانا يتمتع بالحياة كاملة لكنه لا يستطيع أن يستفيد كل الاستفادة من حواسه، وأحس كأنما أتفوق عليه تفوقا غير عادل، وقد تملكني هذا الشعور حين نظرت إلى العينين الثابتتين الكفيفتين تحت الحاجبين الأبيضين الأشعثين، على أن الرجل لم يدع لي متسعا من الوقت أفكر فيه هذا التفكير المؤلم، فقد صاح ضاحكا في صخب: أنه ليوم سعيد حقا، وإنها لتبدو معجزة أن رجلا من مبار رجال برلين يأتي إلينا، ومن واجبنا نحن القرويين أن نكون على حذر حين يأتي لزيارتنا تاجر مشهور مثلك، ومن الأمثال المأثورة في هذا الجزء الذي نسكنه من العالم: أغلقوا

أبوابكم واحرصوا على جيوبكم إذا رأيتم الغجر من حولكم، وإني لأحدس السبب الذي دعاك إلى تحمل كل هذه المشقة، فالتجارة كاسدة على ما أظن، والمشترون قلائل، أو أنهم معدومون، ولهذا يبحث التاجر عن عملائه القدامى، لكني أخشى أن تبوء بالفشل، فنحن – أرباب المعاشات – نعد انفسنا سعداء إذا وجدنا بعض الخبز الجاف لغذائنا، لقد كنت أجمع التحف في زماني، لكني اليوم خارج هذا المحيط، وقد انقضى عهد الشراء بالنسبة لي.

وأسرعت أقول إنه مخطئ في ظنه، وإني لم أحضر من أجل صفقة أعقدها، وكل ما في الأمر أني كنت مصادفة على مقربة منه، ورأيت أنه لا يليق بي أن تفوتني فرصة تقديم احترامي إلى عميل قديم هو في الوقت ذاته من أشهر جامعي التحف الألمان، وما كدت أقول ذلك حتى حدث تغير ظاهر في ملامح الرجل الهرم، فقد كان واقفا جامدا في وسط الحجرة، لكن وجهه أشرق وبدت عليه علائم الزهو.

واستدار إلى الاتجاه الذي ظن أن تكون زوجته فيه، وهز رأسه وكأنما يقول: هل تسمعين؟ ثم التفت إلي وقد رفع التكلف وتحدث في لطف أو إن شئت فقل في حنان:

كم هو جميل منك! .. لكني آسف ألا يكون لزيارتك من أثر إلا معرفة رجل هرم مازح مثلي، لكن عندي شيئا يستحق أن تراه، شيئا أثمن مما تجده في برلين، وفي فينا، وحتى في متحف اللوفر (لعنة الله على باريس!) فالرجل الذي كان جامعا مثابرا طيلة نصف قرن، وكان له ذوق يقوده، يمتلك كنوز لا تجدها على ناصية كل شارع، يا إلزبث أعطني المفتاح الصوان إن سمحت.

هنا حدث شيء غريب، فإن زوجته التي كانت تستمع إلينا مبتسمة مسرورة قد ذهلت ورفعت يديها نحوي وضمتهما في تضرع وهزت رأسها، ولم أدر ماذا تعني هذه الحركات، ثم ذهبت إلى زوجها ولمست كتفه قائلة:

فرانز يا عزيزي، لقد نسيت أن تسأل زائرنا هل لديه موعد آخر، وعلى أي حال فقد حان وقت الغداء أو كاد، ثم قالت وهي تنظر إلي: ويؤسفني أن ليس لدينا في المنزل ما يكفي لإطعام زائر مفاجئ، فلا شك أنك ستتناول غداءك في النزل، فإذا رأيت أن تشرب عندنا فنجانا من القهوة فيما بعد فإن ابنتي آنا ماريا ستكون هنا وهي أعلم مني بمحتويات الحقائب.

ثم نظرت إلى مرة أخرى في حنو وإشفاق وأدركت أنها تحثني على رفض ما عرضه علي زوجها من فحص المجموعة في الحال، فقلت: الحق أن لدي موعدا للغداء في النزل، لكن يسرني أن أعود في الساعة الثالثة، وسيكون لدينا متسع من الوقت لفحص ما يرغب السيد كرونفيلد في عرضه علي، ذلك أني لن أغادر البلدة قبل الساعة السادسة.

وغضب الرجل كما يغضب الطفل حرم من لعبة جميلة وزمجر:

إني أعرف بطبيعة الحال أن العظماء القادمين من برلين عليهم كثير من الواجبات، لكني أظن أنه يحسن بك أن تخلي نفسك بضع ساعات، إني لا أريد أن أريك لوحتين أو ثلاثا، بل أحب أن أريك محتويات سبع وعشرين محفظة، كل منها لعلم من الأعلام وكلها مملوءة، فإذا حضرت في تمام الثالثة بالضبط فأظننا نستطيع الانتهاء قبل السادسة.

وأوصلتني زوجته إلى الخارج، وعند باب المدخل همست: هل يضايقك

أن تحضر آنا ماريا لرؤيتك فبل عودتك إلينا؟ ... سيكون ذلك من الأفضل لأسباب عدة لا أستطيع شرحها الآن.

على العكس، سيكون سروري عظيما، فإني أتغدى اليوم وحدي، ويمكن لابنتك الحضور حين تنتهون بعد غدائكم مباشرة.

ولما غادرت قاعة الطعام في النزل بعد ساعة من خروجي من البيت، وصلت آنا ماريا كرونفيلد، وكانت فتاة كبيرة حيية، محتشمة، بسيطة الملبس، فلما رأتني أخذت تنظر إلي وهي مرتبكة، وبذلت ما في وسعي لأذهب ارتباكها، وأبديت استعدادي للذهاب معها في الحال إن كان والدها يتلهف على ذهابي إليه وإن لم يحن موعدنا بعد، عند ذلك احمرت وجنتاها وازدادت ارتباكا، ثم تمتمت في رجاء أن

أسمح لها بحديث قصير قبل أن تمضي، فأجبتها:

تفضلي بالجلوس، إني طوع أمرك.

وكان من العسير عليها أن تبدأ الحديث، فقد ارتجفت يداها وشفتاها ثم قالت بعد لأي:

لقد أرسلتني أمي، إننا نسألك مكرمة، بمجرد قدومك سيرغب أبي في أن يريك مجموعة، والمجموعة ... المجموعة ... حسنا، لم يكد يبقى منها شيء، ولهثت وكادت تختنق بالبكاء ثم واصلت حديثها قائلة:

يجب أن أكون صريحة معك .. أنت تعلم متاعب الأيام العصيبة التي تمر بنا، وأنا أثق أنك ستدرك ما أقول، فبعد أن نشبت الحرب بقليل فقد

والدي بصره تماما، وقد كان بصره في ضعف مستمر، ولعل اضطراب أحوال البلاد ساعد على ذلك، ولقد أراد ال١هاب إلى الميدان رغم أنه جاوز السبعين من عمره لأنه تذكر الحرب التي اشترك فيها منذ مدة طويلة، وطبعا لم يكن ذا نفع في الحرب، فلما أن هزمت جيوشنا آلمه ذلك وأقض مضجعه، ويظن الطبيب أن حزنه هذا قد عجل بفقد بصره، وأنت ترى أنه فيما هدا هذا لا يزال قويا، وقد كان حتى سنة ١٩١٤ يستطيع السير على قدمه مسافات طويلة والذهاب للصيد، فلما أن فقد بصره أصبحت متعته الوحيدة مجموعته الفنية، فهو ينظر إليها كل يوم ويتأملها، أقول بتأملها وإن كان لا يرى شيئا، ففي عصر كل يوم يضع محافظ اللوحات على المنضدة وبتحسسها واحدة واحدة، بالترتيب الذي جعلته السنون الطوال مألوفا له، ولا يسره شيء مثل ما يسره ذلك، وهو يطلب إلي أن أقرأ له أخبار المزايدات وكلما ارتفعت أثمان التحف زاد هو حماسه، وهذا هو الوجه المحزن في المسألة، فوالدي لا يعلم شيئا عن أزمة التضخم المالي، ولا يعلم أننا قد حل بنا الخراب، وأن معاشه الشهري لا يشتري طعام يوم، قم إن لنا من نعولهم غيرنا، فزوج أختي قد قتل في فردان وترك وراءه أربعة أطفال، وقد أخفينا عنه هذه المتاعب المالية، ونحن نقتصد بقدر ما نستطيع، لكن لا نستطيع أن نتدارك الأمر، فأخذنا نبيع متاعنا، الحلي وما إليها دون أن نمد يدا إلى مجموعته المحبوبة، ولم يكن لدينا ما يباع إلا القليل، فقد كان أبي ينفق كل ما يحصل عليه في شراء اللوحات والصور لأنه كان مصابا "بجنون الجمع" كما يقولون، وأخيرا كان علينا أن نختار بين اثنتين: فإما أن نتجه إلى بيع المجموعة وإما أن ندعه يموت جوعا، ولم يكن هناك اختيار ولم نطلب أذنه، وما الفائدة؟ إنه لم

يكن يعلم ما نلاقيه من الصعاب في الحصول على الطعام بأي ثمن، فهو لم يسمع أن ألمانيا قد سلمت الألزاس واللورين، فنحن لا نقرأ له مثل هذه الأنباء في الصحف.

وكانت أولى قطعة بعناها ثمينة جدا، هي لوحة من صنع رامبرانت، وأعطانا فيها التاجر ثمنا ضخما، كذا ألفا من الماركات، وظننا أنها ستكفينا عدة سنين، لكنك تدرك كيف كانت النقود تتبخر في سنة ١٩٣٢، ١٩٣٣، فبعد أن أخذنا حاجتنا العاجلة أودعنا الباقي في أحد المصارف، ولكننا أنفقناه كله في شهرين، واضطررنا إلى بيع لوحة ثانية فثالثة، وكان ذلك في أسوأ أيام التضخم المالي، وكان التاجر كل مرة يماطل حتى يصبح ما يدفعه ثمنا لها لا يساوي ما وعدنا بدفعه أو جزءا من مائة منه، وجربنا المزادات لكننا خدعنا هناك أيضا، وغن كانت الأثمان قد قرت بالملايين، فقد كانت ملايين الماركات وملايين الملايين منها لا تزيد قيمتها حين تصل إلى أيدينا على قيمة الأوراق التي تلقى في سلة المهملات، وهكذا تبددت المجموعة في سبيل الحصول على الخبز ولم نحصل منه إلا على القليل، وهذا ما أفزع والدتي حتي حضرت اليوم، فإذا فتحت الحافظات عرفت خدعتنا على الفور، فهو يعرف كل قطعة منها باللمس، لذلك كنا كلما أخذنا لوحة وضعنا محلها لوحة من الورق المقوى بنفس الحجم والسمك حتى لا يدرك شيئا مما فعلنا، فهو يلمسها واحدة بعد واحدة ويعيدها ويسر من ذلك كانه قد رآها فعلا، وهو لا يحاول قط أن يرى مجموعته لأحد هنا، لن هذه الجهات ليس فيها خبراء في اللوحات، وليس فيها من هو خليق بان يراها، لكنه يحب كلا منها إلى درجة العبادة، وغن قلبه ليتحطم إذا علم أنها قد تبددت، وكانت آخر مرة

طلب فيها إلى أحد أن يراها حين عرضها على أمين المتحف الفني في درسدن، وقد مات هذا الأمين من عدة سنين، ثم قالت بصوت أجش: لهذا أضرع إليك ألا تحطم خداعة! وألا تقضي على إيمانه بأن ما سيعرضه عليك حقيقي، فلن يتحمل الصدمة إذا عرف أنها ضاعت، ولربما تكون قد ظلمناه، ولكن ماذا كنا نفعل؟ إن الإنسان لا بد له أن يعيش، وغن الأطفال اليتامى لأعز من اللوحات القديمة، وإلى جانب هذا كانت سعادته أن يقضي ثلاث ساعات عصر كل يوم يمر على مجموعته الوهمية ويتحدث إلى كل قطعة منها وكأنها صديق له، ربما كان اليوم آخر تجربة تمر به مذ فقد بصره، فلطالما انتظر فرصة يعرض فيها كنزه على خبير! فإذا ما اشتركت معنا في هذه الخدعة ...

ليس في وسعي أن أنقل إليك بهذه الألفاظ الباردة مقدار ما حز في نفسي هذا التوسل، لقد رأيت حالات محزنة كثيرة في أثناء عملي، ولطالما شاهدت أناسا انهاروا في أثناء التضخم واضطروا أن يضحوا بأثمن متاعهم الموروث وأعزه في سبيل كسرة.

لكن قصة هذا الأعمى قد مست شغاف قلبي، ولست بحاجة إلى أن أذكر أنني وعدتها أن أضطلع بهذا الدور.

وذهبنا إلى منزلها معا، ولقد أحزنني – وإن لم يدهشني – وأنا سائر معها أن أعلم أن هاتين المرأتين الجاهلتين قد باعتا – بحسن نية – لقاء ثمن بخس كثيرا من روائع الفن كان بعضهما عظيم القيمة وبعضها لا مثيل له، وهذا مما واد في عزمي أن أساعدهما بكل ما أستطيع، وحين صعدنا السلم سمعنا صوتا يقول: تفضل! تفضل! فقد عرف الأعمى لما يمتاز به أمثاله من سمع

حاد وقع الخطوات التي كان ينتظرها بفارغ الصبر.

وقالت زوجة العجوز وهي تقودنا إلى الداخل مبتسمة: إن فرانز ينام قليلا بعد الظهر، لكنه لاهتمامه وتحمسه بقى مستيقظا اليوم: وكانت نظرة إلى ابنتها كافية لتدلها على أن كل شيء على ما يرام، وكانت مجموعة الحافظات على المنضدة، وأمسك بي الجامع الأعمى من ذراعي وألقاني على كرسي أعد لي إلى جانبه.

وقال: دعنا نبدأ في الحال، فلدينا الكثير مما يجب أن تراه، والوقت ضيق إن الحافظة الأولى تحوي أعمال "درورر" وهي مجموعة كاملة تقريبا، وسترى أن كل قطعة منها تفوق الأخرى، إنها نماذج رائعة، احكم بنفسك.

وفتح الحافظة وقال: لنبدأ بلوحة "قارئ الغيب طبعا"

ثم أخرج بعناية ورقة كما لو كان يمسك شيئا ثمينا قابلا للكسر أولى اللوحات ورفعها وهو يبدي إعجابه بها أمام عيني المبصرتين وعينيه الكفيفتين، وكانت نظراته تحوي من معاني الإعجاب ما يعز معه على أن أصدق أنه لا يبصر، ورغم أني أعلم أن الصورة وهمية فقد وجدت من الصعب أن أشك أن في عينيه إدراكا ومعرفة ...

هل رأيت لوحة أجمل من هذه؟ كل التفاصيل واضحة جلية، فقد فاضلت بين لوحتي واللوحة المحفوظة في متحف درسدن، والثانية جيدة بلا ريب، لكنها تبدو متواضعة إزاء هذه، ثم إن عندي بيان ملاكها المتعاقبين.

وأدار اللوحة وأشار إلى ما كتب على ظهرها بثقة جعلتني دون قصد أنحني إلى الأمام لأقرأ الإمضاءات الوهمية – طابع مجموعة "ناجلر" ثم "ريمس"

ثم "أسداي" إن ملاكها قبلي لم يكونوا يظنون قط أنها ستستقر في مثل هذه الحجرة الصغيرة.

وارتجف جسمي واضطربت أعصابي حين كان هذا الرجل المتحمس يطري لوح الورق الخالي الذي كان بيده، وكاد قلبي ينخلع من شدة التأثر حين وضع ظفر إصبعه على المكان الذي يظن أن قد كتب فيه أسماء من يعتقد أنهم امتلكوا هذه الصورة البديعة، ومن أصبحوا من زمن بعيد من سكان القبور، وخيل إلي وقتئذ أن أشباح هؤلاء الموتى الذين أخذ يذكر لي أسماءهم قد خرجت من مقابرها والتصق لساني بسقف حلقي وظل كذلك حتى وقعت عيناي مرة أخرى على وجهي زوجة كرنفلد وابنته، وقد كاد يطير لبهما وينخلع قلبهما مما استولى علي من ذهول، واستجمعت قواي وعدت إلى تمثيل دوري في هذه المأساة وصحت متكلفا الإعجاب: إنك محق فهذه الصورة لا مثيل لها.

فانتفخ زهوا وأتم كلامه قائلا:

ولكن هذه ليست شيئا يذكر إذا قيست إلى ما عندي، انظر إلى هاتين "الحزينة" و"العاطفة" إن الأخيرة دون ريب لا نظير لها، انظر إلى حدة الألوان، غن زملاؤك في برلين وأمناء المتاحف العامة ليغبطوني إذا وقعت عينهم عليها ولن أثقل عليك بالتفاصيل، فكذا مرت ساعتان كاملتان والرجل يخرج حافظة إثر أخرى، ولقد كان شيئا مفزعا أن أرقب عرض مائتين أو ثلاثمائة صفحة بيضاء، وأن أجيبه بكلمات الإطراء في مواضعها، وبإطراء مزايا لا وجود لها، ولكنها كانت بالنسبة لهذا الأعمى حقيقة واقعة، حتى لقد كان

إيمانه هذا يبعث في قلبي إيمانا يماثله، ولقد أنجاني هذا الإيمان من ألم شديد.

وأوشكت النكبة أن تحل ذات مرة، ذلك أنه كان يعرض علي لوحة لرامبرنت اسمها "أنتيوب" لا بد أنها كانت ذات قيمة لا تقدر – ولا ريب أيضا أنها بيعت بثمن بخس – وأخذ يطنب في جمالها وتناسق ألوانها، لكنه مر بأصابعه بخفة عليها ولم تجد أنامله الحساسة بعض ملامحها المألوفة فاربد وجهه وارتجفت شفتاه وقال:

لا بد أن تكون هذه لوحة رامبرنت، فما من أحد يلمس اللوحات سواي فكيف يضطرب وضعها.

وحينئذ أسرعت وأخذت منه اللوحة وقلت .. ولكنها بعينها ولا شيء سواها يا سيد كرونفيلد، وأخذت أصف دقائق اللوحة التي أمكنتني ذاكرتي أن أخلعها على اللوح الأبيض.

فزال ارتباكه، وكلما مضيت في الثناء، ازداد اغتباطا حتى قال في النهاية للمرأتين وهو جذلان:

ها هو ذا رجل يعرف قيمة الأشياء، طالما لمتاني على تبذير نقودي في شراء هذه المجموعة، لقد قضيت عشرين عاما كاملة حرمت فيها نفسي من الخمر والدخان والرحلات وزيارة المسارح وشراء الكتب، وأنفقت كل ما أمكن ادخاره شراء هذه الصور التي كنتما تحتقرانها،

فها هو ذا السيد راكنر يؤيدني في حكمي عليها، فإذا ما مت فستصبحان أغنى من في البلدة، وسيكون لديكما من المال ما لأغنى أهل درسدن، وسيحق لكما أن تهنئا نفسيكما على "غفلتي" لكن يجب أن تبقى

المجموعة كما هي طالما كنت حيا، فإذا ما مت وواريتموني التراب ساعدكما هذا الخير وأمثاله على بيعها، وستضطران إلى ذلك لأن معاشي سينقطع بعد وفاتي.

وكانت أصابعه تلاطف الحافظات المسلوبة وهو يتحدث، وكان الموقف مؤثرا رهيبا، فلم أر قط على ألماني منذ سنة ١٩١٤ مثل هذه السمات الدالة على السعادة الخالصة، وكانت زوجته وابنته ترقبانه وعيناهما مبللتان بالدموع، ولكن إعجابي بالرجل وتقديري إياه كانا منقطعي النظير، لقد أخذ يقلب المحافظ واحدة بعد واحدة، ثم ينتقل من صورة إلى صورة ويتقبل إطرائي لكل واحدة منها، وتنفست الصعداء حين انتهى من عرضه، ووضع الألواح البيضاء في موضعها، وأعدت الحجرة لتقديم القهوة.

وكان مضيقي أبعد ما يكون عن التعب، كان يبدو كأنه قد استرد شبابه، وأخذ يقص علي قصة بعد قصة، ويذكر كيف حصل على لوحاته المختلفة، وأراد أن يخرج مرة أخرى كل لوحة يجيء ذكرها، وبلغ من تحمسه لهذا أن غضب حين أصررت وأصرت المرأتان على أنني لن ألحق القطار إذا أبقاني بعد ذلك في منزله ...

وفي النهاية ودعني وهو آسف لفراقي، وقال برقة وصوت مضطرب ويداي بين يديه:

إن زيارتك قد أسعدتني غاية السعادة، ما أعظم سعادتي إذا أتيح لي أن أعرض مجموعتي على رجل يقدرها، وأستطيع أن أفعل شيئا أعبر به عن تقديري، وأجعل لزيارتك لرجل هرم أعمى ذات قيمة، سأضيف إلى وصيتي

شرطا يعطي متجرك، وهو متجر يشهد بأمانته كل إنسان، حق الإشراف على بيع مجموعتي بالمزاد.

ووضع يده على حافظاته التي لا تساوي شيئا ...

واختلست نظرة إلى المرأتين وكانتا تجاهدان في ألا يصل صوت ارتجافهما إلى سمعه الحاد، ووعدت بما يستحيل على أن أفي به، وضغط على يدي لقاء ذلك.

وصاحبتني زوجته وابنته إلى الباب، ولم تحاولا قط أن تتحدثا، لكن الدموع كانت تنهمر على خدودهما، ولم أكن أنا نفسي أحسن منهما حالا، لقد أتيت أنا بائع التحف الفنية لأبحث عن صفقة، لكن الآية انعكست، وأصبحت ملاكا من ملائكة الرحمة، اشتركت في خدمة أسعدت بها رجلا هرما.

لقد كنت أعد الكذب عارا، ولكني في هذه المرة سرني أني كذبت، فلقد أثرت في ذلك اليوم عاطفة من السرور تبدو غريبة وسط ما يحيط بنا في هذه الفترة من حزن ووجوم.

وما كدت أخطو إلى الشارع حتى سمعت صوت نافذة تفتح، واسمي ينادى، ذلك أن الرجل الهرم، وإن لم يكن يستطيع رؤيتي، كان يدرك في أي اتجاه أسير، وإلى هذا الاتجاه اتجهت عيناه الكفيفتان، وقد ارتكز على حافة النافذة وأطل منها حتى قلقت المرأتان وأحاطتاه بذراعيهما مخافة أن يسقط، وصاح وهو يلوح بمنديل: رحلة سعيدة يا سيد راكنر.

كان صوته يرن كانه غلام، ولن أنسى قط وجهه الباش الفرح الذي

يختلف كل الاختلاف عن وجوه الأشقياء البائسين الذين شاهدتهم في الطريق إن الخداع الذاتي الذي أعنته على أن يحتفظ به قد حبب إليه الحياة وأنساه أحزانها، أليس جوته الذي قال، إن جامعي التحف خلائق سعداء؟

## القمصان

**لكارك كابك ١٨٩٠ – ١٩١٩[*]**

كان يريد أن يفكر في مسائل أخرى أهم كثيرا من المسألة التي تشغل باله في ذلك الوقت، ولكنه رغم ما بذل من جهود لم يستطع تحويل أفكاره عن تلك الفكرة البغيضة التي ظلت مستحوذة على عقله، لقد كانت ربة بيته لا تنقطع عن سرقة متاعه .. إنها في خدمته من زمن طويل، وقد اعتاد أطول هذه ألا يفكر فيما يؤول إليه أمر متاعه الخاص، وكان في حجرة نومه ... له يحتوي على ملابسه الداخلية، يفتحه في الصباح ويخرج منه قميصا نظيفا من أعلى كومة القمصان التي به وكانت مسز جهنكا تأتي إليه بين الفينة والفينة في فترات متفاوتة الطول وتعرض عليه قميصا ممزقا، وتقول إن قمصانه كلها أضحت بهذه الحال السيئة، وإن على سيدها أن يبتاع قمصانا جديدة، فيذهب من فوره ويبتاع ستة قمصان من أول متجر يلقاه، ويخيل إليه أنه قد فعل هذه الفعلة نفسها من زمن قريب، وكان هذا بعينه يحدث لأربطة الرقبة وأطواق القمصان والملابس والأحذية والصابون ولمئات الحاجيات التي تلزم الإنسان في حياته العادية ولو لم يكن متزوجا، فكان لا بد له من تجديد كل شيء في أوقات متقاربة، ولكنه كان يظن أن أمتعة

---

[*] حاصل على درجة الدكتوراة في الفلسفة من تشكوسلوفاكيا، بدأ الكتابة وهو طالب في جامعة براج، فلما أتم دراسته خص الأدب مجهوده كلها، ولما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها اتجه إلى كتابة التمثيليات وإخراجها، ولكن القصة القصيرة كانت على الدوام من خير الوسائل التي عبر بها عن آرائه، وقد ترجمت معظم مقالاته ومسرحياته وقصصه القصيرة إلى أكثر اللغات الأوروبية.

الشيوخ من الرجال يتقادم عهدها ويبلى في وقت قصير، أو أنها يحدث لها ما ليس يعلمه إلا علام الغيوب.

ومن أجل هذا كان لا ينفك يبتاع متاعا جديدا، فإذا ما فتح صوان ملابسه واجهته كومة من الملابس البالية الحائلة اللون التي لا يدري متى صنعت، ولكنه كان يقول لنفسه: لا داعي للاهتمام بهذه الأمور لأن مسز جهنكا تعني بها كلها.

والآن بدا له لأول مرة بعد هذه السنين الطوال أن متاعه يسرق سرقة منظمة وخطرت له هذه الفكرة بالطريقة الآتية: لقد تلقى في صباح ذلك اليوم دعوة إلى وليمة أقامتها إحدى الجمعيات، ولم يكن قد تلقى دعوة مثلها من سنين طوال لأن أصدقاءه المقربين إليه قلائل، ومن أجل هذا فقد حيرته هذه الدعوة المفاجئة، وأبتهج لها أيما ابتهاج، ولكنه أوجس في نفسه خيفة منها، وكان أول ما فعل أن أخذ يبحث في صوان ملابسه عن قميص يليق بهذا الحادث الجلل، فأخرج قمصانه كلها منه، ولكنه لم يجد بينها قميصا غير ممزق عند كمية أو عند طوقه، فاستدعى إليه جهنكا وسألها أليس لديه قمصان أحسن مما أرى؟

وابتلعت مسز جهنكا ريقها، وصمتت هنيه، ثم أعلنت في لهجة شديدة أن من واجب سيدها بلا شك أن يبتاع قمصانا جديدة، وأن من العبث أن يطلب إليها ترقيع القمصان القديمة لأنها أضحت أوهن من نسيج العنكبوت، على أنه كان يبدو له في غير وضوح أنه ابتاع عددا من القمصان من زمن قريب، ولكنه لم يكن متحققا من هذا، فصمت ثم شرع يرتدي

معطفه استعدادا للخروج لشراء هذه القمصان، فلما فعل هذا أخرج من جيبه بعض أوراق قديمة لينظر هل يحتفظ بها أو يمزقها، فوجد من بينها آخر ثبت بأثمان القمصان التي ابتاعها منذ سبعة أسابيع لا أكثر، نعم لقد ابتاع منذ سبعة أسابيع ستة قمصان وكان ذلك كل ما عرف.

فلما تبين له هذا لم يخرج لشراء قمصان جديدة، بل أخذ يذرع الحجرة جيئة وذهابا، وهو غارق في تأملاته، وعادت إلى ذاكرته حنو وحدته الطويلة، لقد كانت جهنكا تشرف على منزله مذ توفيت زوجته، ولم يرتب قط في أمرها أو يفقد ثقته بها، أما في هذه اللحظة فقد سرى في نفسه شعور بعدم الاطمئنان. وأحس بأن متاعه كان يسرق منه طوال تلك السنين، وتطلع حوله ولكنه لم يستطع أن يعرف بالضبط أي شيء ينقصه، غير أنه أدرك لساعته أن من حوله فارغا، وأن المكان مقفر، وحاول أن يتذكر أنه قد كانت حوله فيما مضى من الأيام أشياء أكثر ونظرات أشد عطفا مما يحيط به اليوم ... وآلمه هذا الإحساس وفت في عضده، ففتح أحد الأدراج التي كان يحتفظ فيها بذكريات زوجته، ومنها ملابس وقمصان، فألفى فيه قطعا منها بالية، ولكنه قد ذهب عنها روح الماضي كله، رباه! ما أكثر الأشياء التي خلفتها زوجته! ترى أين ذهبت دميعها؟

ثم أغلق الدرج وأرغم نفسه على التفكير في موضوعات غير هذا الموضوع كالحفلة التي دعي إليها في تلك الليلة، ولكن تلك السنين الخالية عادت إلى ذاكرته وألحت عليه، وبدت له الآن أعظم إقفارا، وأكثر مرارة، وأشد بؤسا، مما كانت وهو يمر بها ويعيش في خلالها، ولاحت له فجاءة وكأنها سنون قد انتهت من عمره انتهابا، وأنها ننفث فيه آلام الوحدة والكآبة، وما

من شك في أن آلامه هذه كانت تفارقه في بعض الأيام الماضية فيرضى بحاله ويقنع بما قسم له، فيكون كالمريض الذي يتناول مخدرا لينام بعض ساعات الليل، أما الآن فقد أمضه أن يحس بنوم الرجل الذي لا رفيق له ولا أنيس، والذي تمتد الأيدي القريبة إليه فتسرق كل ما لديه على الوسادة التي تحت رأسه، وشعر وقتئذ بأنه شقي بائس يقاسي ألما يحز في نفسه أشد من كل ما عرفه منه مذ ذلك اليوم الذي عاد فيه من جنازتها، وأحس أنه متعب تقدمت به السنون وأنه إنسان قست عليه الأيام.

على أن شيئا واحدا لم يكن في وسعه أن يتبينه: لم يا ترى تسرق متاعي؟ وماذا تفعل بما تسرق؟ ثم تذكر فجاءة بشيء من الرضا الذي يقترن به حب الأذى أن لها ابن أخت في مكان ما، وأنها مغرمة به إلى حد الجنون، وقال في نفسه: "ألم أستمع طويلا إلى ثرثرتها في وصف هذا الشاب وقولها عنه إنه زهرة الشبان الناضرة؟ إني أذكر أنها قد أطلعتني من زمن وجيز على صورة شمسية له، وأشارت إلى شعره الجعد، وأنفه الأفطس، وشاربه القبيح، وإن كانت هي في ذلك الوقت قد أخذت تمسح الدموع التي تحدرت من عينيها إعجابا به وافتخارا، وقال في نفسه هأنذا قد عرفت أين يذهب متاعي كله! وثارت ثائرته حين فكر في هذا فيم شطر المطبخ مسرعا ونادى جهنكا قائلا: "أيتها العجوز الشمطاء اللعينة!" أو شيئا من هذا القبيل، ثم قفل راجعا وتركها مذعورة تقلب عينيها المحدقتين الشبيهتين بعيني النعجة العجوز.

ولم يتحدث إليها قط بقية ذلك النهار، وظلت هي تتحسر كأن إهانة شديدة لحقتها، وتلقي عن يمينها وشمالها كل ما تصل إليه يدها من أدوات البيت، وهي لا تعرف قط منشأ هذه المتعب الجديدة، وأخذ يعد ظهر ذلك

اليوم يحصى ما في صوانه وأدراجه، فهاله ما وجد، وتذكر هذا الشيء وذاك مما كان له في وقت من الأوقات، من تذكارات قديمة خلفتها له أسرته، وبدت له الآن ذات قيمة لا تقدر بمال، وها هي ذي لم يبق منها شيء – لم يبق منها شيء قط كأن نارا عظيمة قد التهمتهما، واوشك الرجل أن تنهد قواه فيبكي من فرط الغضب والوحدة.

وجلس بين الأدراج المفتوحة يلهث من فرط الغضب، يغيظه الثرى – ويمسك في يده الأثر الوحيد الذي تبقى له – وهو كيس نقود والده المصنوع من الخرز، والذي بلى الآن وحدثت فيه الثقوب من طرفيه، ترى كم من السنين ظلت تسرقه حتى لم تبق له قط شيئا؟ لقد كاد يتميز من الغيظ، ولو أنه التقى بها في تلك اللحظة للطمها على وجهها، وقال في نفسه وهو مضطرب ثائر: "ماذا أنا فاعل بها الآن؟" أأطردها من خدمتي على الفور؟ أأسلمها إلى الشرطة؟ ولكن من يطهو لي طعامي غدا؟" ثم قرر أن يتناول طعامه في مطعم، ولكنه عاد فقال: "ولكن من يسخن لي الماء ويوقد النار للتدفئة؟". ثم استجمع قواه بجهد عنيف وقال في نفسه مؤكدا هذا القول أشد التوكيد: "سأفصل في هذا كله غدا، ومن يدري ماذا يحدث غدا؟ لشد ما يؤلمني أن أفكر في أنني اعتمد عليها!" بيد أن ذلك الأمر قد نت في عضده أكثر مما كان يريد أن يعترف به، وكل ما كان يحفظ عليه شجاعته في ذلك الوقت هو شعوره بأن ظلما قد حاق به وبأنه لا بد أن ينتقم لنفسه ممن ظلمه.

ولما أرخى الليل سدوله استعاد من فوره ما امكنه من أن يدخل على جهنكا في المطبخ ويقول لها من غير مبالاة: "يجب أن تخرجي من عندي إلى

حيث تريدين" ثم طلب إليها أن تخرج لقضاء أعمال لا صلة لها بالموضوع الذي كان يشغل باله، وتستغرق من وقتها زمنا طويلا، وقال إنها يجب أن تنجزها في الحال، وكان قد أجهد نفسه من قبل في التفكير في هذه الأمور ولم ترد عليه جهنكا لفظ واحد بل خرجت للقيام بما طلبه إليها، وظهر عليها من الألم ما يظهر على الشهداء الأطهار.

وسرعان ما أغلق باب الدار وراءها بقوة، وأصبح هو وحده فيها، فتسلل إلى المطبخ وقلبه يخفق خفقانا سريعا، وأمسك بمزلاج الباب، ولكنه تردد في فتحه، واستولى عليه أشد الرعب حين شعر بأنه لن يؤتي من الشجاعة ما يستطيع به أن يفتح صوانها، فقد خيل إليه أن هذا العمل هو التلصص بعينه، ولكنه حين أوشك أن يمتنع عنه بتاتا انفتح الباب في يده، وكأن هذا قد حدث من غير إرادته، ودخل هو المطبخ فرآه يكاد يتلألأ من نظافته وحسن ترتيبه، وأبصر أمامه صوان جهنكا ولكنه كان مغلقا وليس فيه مفتاح، فزاده هذا تصميما على تنفيذ قصده، فأمسك بأخذ سكاكين المطبخ وحاول أن يفتح باب الصوان، ولكنه استعصى عليه، فعاد يبحث عن المفتاح في كل درج من أدراجه، وجرب كل مفتاح من مفاتيحه الخاصة، ثم ظل نصف ساعة يحاول فتحه بكل ما يستطيع من وسائل، ثم وجد آخر الأمر أن باب الصوان غير مغلق وأن في وسعه أن يفتحه بجذبه إليه.

فلما فتحه وجد ملابسه الداخلية مكوية ومرتبة بدقة وعناية على رفوف متفرقة، فكان على الرف العلوي منها قمصانه الستة الجديدة، مربوطة بالرباط الأزرق الذي ربطها به بائعها، ووجد في صندوق من الورق المقوي مشبك زوجته وفيه حجر المرو الأزرق البنفسجي، وزري قميص أبيه

المصنوعين من اللؤلؤ وصورة أمه ذات الإطار العاجي – بالله وهل لهذه الصورة نفسها فائدة لديها؟ وأخرج كل ما في الصوان فوجد فيه جواربه وأطواق قميصه، ووحد صندوقين من الصابون، وفراجين أسنان، وصدرييه من الحرير، وأكياس وسائد، ومسدسا قديما لوالده، ومبسما من الكهرمان ملونا بالدخان لا نفع فيه، لقد كانت هذه بعض ما اختفى من متاعه، أما الباقي وهو معظمه فقد ذهب من زمن بعيد إلى ابن أختها ذي الشعر الجعد، وخمدت نار غضبه ولكن نار الألم بقيت تحز في فؤاده، إذن فهذا ما كان يحدث طوال الأيام الماضية .. أي جهنكا! جهنكا! هل أستحق هذا كله منك؟.

ونقل هذه الأشياء كلها واحدا بعد واحد إلى حجرته، وبسطها أمامه على النضد، فكان منها معرضا رائعا لكل ما يتصوره الإنسان من المتاع الخاص فأما ما كان منها ملكا لجهنكا فقد أعاده إلى صوانها في المطبخ، ولقد فكر في بادئ المر أن يعيده بالنظام الذي كان عليه، وبذل في ذلك بعض الجهد، ولكنه لم يوفق، فوضعه في غير نظام وترك الصوان نفسه مفتوحا كما يتركه اللصوص على عجل .. ثم بدأ يخشى أن تعود جهنكا، وفكر في أنه سيضطر إلى أن يصارحها بالحقيقة ... وآلمته هذه الفكرة أشد الألم، فبدأ يرتدي ملابسه لساعه، وقال في نفسه: سأترك تأنيبها إلى الغد، وحسبها اليوم أن تدرك أني عرفت حقيقة أمرها، وأخرج من قمصانه قميصا جديدا منشى كأنه الورق المقوي، حتى لقد عجز رغم ما بذل من جهد عنيف عن أن يضع فيه طوقه، ثم أخذ يفكر في أن جهنكا قد تعود إلى المنزل في أية لحظة، فلم يرى بدا من أن يلبس قميصه القديم، فلبسه مسرعا رغم أنه

وجده ممزقا، وما كاد يرتدي حلته حتى تسلل من الدار كما يتسلل اللصوص، وظل ساعة يتسكع في الطرقات في المطر المنهمر حتى آن أوان المأدبة، وشعر وهو بين الجمع الحاشد انه وحيد، وحاول أن يتحدث حديثا وديا إلى بعض معارفه، ولكنه وجد أن السنين قد فرقت بطريقة لا يعرفها بينه وبين غيره من الناس، رباه! لقد أصبح من أصعب الأمور عليهم أن يفهم بعضهم بعضا، على أنه لم يجد في قلبه حقدا على احد، ووقف بمفرده، وتبسم، وقد راعته الأنوار المتلألئة، وحركات الجموع المحتشدة وأصواتهم، وظل كذلك حتى تولاه الفزع من جديد لسبب لا يعلمه ... وقال في نفسه: ترى كيف يبدو مظهري في أعين الحاضرين؟ ها هي ذي خيوط متدلية من قميصي وبقعة سوداء على سترتي، أما حذاءي فلا حاجة لي بأن أذكر عنهما شيئا، وتمنى لو استطاع أن يغوص في الأرض غوصا، وأخذ يلتفت يمنه ويسرة لعله يجد له مكانا يختبئ فيه، ولكنه كان يجد في كل ناحية قمصانا لامعة براقة ... فأي مكان يستطيع أن يتسرب إليه دون أن يراه أحد! وكان يخشى أن يخطو خطوة نحو الباب لئلا يستلفت إليه أنظار الحاضرين جميعا، فارتبك وتبلل جسمه بالعرق، وتظاهر بأنه واقف لا يتحرك، ولكنه كان طوال الوقت يحرك قدميه إصبعا بعد إصبع حتى يصل إلى الباب دون أن يكشف سره أحد، غير أنه لسوء حظه التقى في تلك اللحظة بأحد معارفه الأقدمين، وكان زميلا له في المدرسة الثانوية، فزاد ذلك في حيرته وارتباكه، وتحدث إليه هذا الرفيق فأجابه، وهو مرتبك، جوابا خشى أن يكون فيه ما يسئ إليه، ولما أن وجد نفسه مرة أخرى بمفرده تنفس الصعداء وقاس المسافة التي بينه وبين الباب، وأخيرا أسرع بالخروج وعاد إلى بيته ولم يكن منتصف الليل قد حان.

وعادت صورة جهنكا إلى عقله وهو عائد إلى منزله، وأمتلأ فمه بالحديث السريع، وأخذ يفكر فيما يقول لها حين يلتقي بها، فتتابعت عليه العبارات الطويلة القوية المرتبة، وتتابعت في يسر لم يعهده من قبل، وتألفت منها خطبة طويلة من التقريع الشديد والرأفة في النهاية، نعم، الرأفة، وسيصفح عنها آخر الأمر، وهل يليق به أن يخرجها من داره ويلقي بها في الطريق؟ فستبكي جهنكا وتتضرع له، ثم يتوب وتعاهده على ألا تعود إلى فعلتها، وسيصغى إليها وهو صامت لا يتحرك، ثم تقول لها آخر الأمر في كبرياء وأنفة، "أي جهنكا، يجب أن تكوني شريفة وفية، ولست أطلب إليك أكثر من هذا، فأنا رجل شيخ، ولست أحب أن أقسو عليك".

وشغله تفكيره هذا وملك عليه لبه، فلم يدر إلا وهو أمام منزله يفتح بابه، فلما دخل أبصر ضوء في حجرة جهنكا، فتطلع في المطبخ من بين ستائر حجرته، رباه! ما هذا؟ ها هي ذي جهنكا محمرة الوجنتين، منتفخة العينين من شدة البكاء، ها هي ذي تتحرك مسرعة في المطبخ، تلقي بأشيائها في حقيبة، وراعه ذلك وأفزعه، ترى لم تلقيها في الحقيبة؟ وتسلل إلى حجرته ماشيا على أطراف أصابعه، وهو مرتبك مهموم لا يدري ماذا يفعل، هل اعتزمت جهنكا أن تترك خدمته؟

لقد كانت كل الأشياء التي سرقتها منه مصفوفة أمامه على النضد، وها هو ذا يلمسها بأصابعه ولكنه لا يجد لذة قط في استعادتها، وقال في نفسه: "ها هي ذي جهنكا قد عرفت أني كشفت عن جريمة السرقة وتتوقع أن أطردها من خدمتي لساعتها – وهذا بلا ريب هو السبب الذي يجعلها تحزم متاعها، سأتركها على عقيدتها هذه إلى صباح الغد، وحسبها هذا عقابا لها،

نعم سأتحدث إليها في الصباح ولكن ربما – ربما جاءتني في هذه الساعة واستسمحتني، ستذرف الدمع من عينيها، وستخر راكعة على ركبتيها، وتندم على فعلتها، وسأقول لها: حسبك هذا يا جهنكا، أني لا أريد أن أقسو عليك، وستبقين في خدمتي إن شئت.

وجلس مرتديا ملابس السهرة ينتظر ما تتطور إليه المسألة، وساد المنزل سكون – سكون شامل لا يقطعه إلا وقع خطى جهنكا وهي رائحة غادية في المطبخ، وصوت غطاء الحقيبة وهي تغلق بقوة، ثم ساد السكون مرة أخرى، ما هذا؟ لقد قفز من مكانه مرتاعا وأصغى: إنه عويل مرعب طويل كأنه صوت مخلوق غير آدمي، ثم استحال هذا الصوت نحيب هستيريا، أعقبه صوت وقوع ركبتين آدميتين على الأرض ثم عويل مكبوت، غن جهنكا تبكي، لقد كان يتوقع شيئا بلا ريب، ولكنه لم يكن يتوقع هذا كله، ثم وقف وقلبه يخفق خفقانا شديدا، وأصغى لما كان يحدث في المطبخ، لم يكن يحدث شيء غير البكاء، إن جهنكا لن تلبث أن تعود إلى صوابها وتطلب المغفرة.

وعاد يخطو في الحجرة ليستعيد رباطة جأشه إذا ما أتت، ولكنها لم تأت وصار يقف بين الفينة والفينة ويصغي، فوجد أن نحيبها قد استحال إلى سلسلة مملة من عواء لا تضعف حدته، وكان هذا اليأس الرهيب شديد الوقع عليه، فاعتزم أن يذهب هو إليها ويكتفي بان يقول لها: "فليكن هذا درسا تتعلمينه يا جهنكا وكفي عن هذا البكاء، سأنسى كل شيء، ولتكوني أمينة في المستقبل".

ثم فتح الباب عليه فجأة واندفع إنسان بقوة، ونظر فإذا جهنكا واقفة

عند مدخل الحجرة، وهي لا تزال تعوي كما كانت تعوي من قبل، لقد هاله أن يرى وجهها المتورم من طول البكاء.

فقال وهو يلهث: "جهنكا"

فانفجرت جهنكا تقول: "هل – هذا هو جزائي منك؟ أتجزيني عن خدمتي كما يجزي اللصوص – يا للعار!"

فصاح مرتاعا: "ولكنك يا جهنكا – لكنك قد أخذت أشيائي – كل هذه الأشياء – ألا ترينها؟ هل أخذتها أو لم تأخذينها؟"

ولكن جهنكا لم تسمع شيئا من أقواله: "هل أطيق هذا – يا للعار – تقلب ما في صواني – كأني – غجرية نشالة – وتؤلمني إلى هذا الحد – لم يكن من حقك أن تفعل هذا يا سيدي – لم يكن من حقك – أن تهينني – لا – أبدا – حتى يوم مماتي – هل كنت أتوقع مثل هذا؟ هل أنا لصة حقا؟ أنا – أنا لصة بحق؟" ثم صرخت صراخا شديدا ينم عن ألم شديد "هل أنا لصة بحق؟ أنا لصة وهذه أسرتي – إن ذلك ما لم أكن انتظره مطلقا – ولم أكن استحق شيئا من هذا".

وقال لها وقد كادت تفارقه كل قواه "ليكن لديك يا جهنكا شيء من العقل، فهل تستطيعين أن تخبريني كيف وضعت هذه الأشياء كلها في صوانك؟ هل هذا من متاعك أو من متاعي؟ انطقي أيتها المرأة الصالحة هل هذا لك؟"

وقالت جهنكا وهي تنتحب: "لا أريد أن أسمع شيئا، رباه – يا للعار! كأني – غجرية – يفتش صواني" ثم صاحت وهي في شدة الانفعال: "ولكني في هذه اللحظة – في هذه اللحظة سأغادر المنزل، لن أبقى هنا إلى الصباح – كلا، لن ابقى – لن أبقى".

فقال لها وقد هاله ما رأى: "ولكن استمعي إلي، إني لا أريد أن أطردك، ستبقين عندي يا جهنكا، أما ما حدث فلعل الله أن يمنع عنا بفضله ما هو شر منه، وأنا لم أقل لك حتى الآن كلمة واحدة عنه، فلا داعي لهذا البكاء".

فقالت جهنكا وعبراتها تخنقها: "لك أن تستخدم غيري، إني لن أقيم معك إلى الصباح، كان الإنسان كلب – من واجبه أن يتحمل كل شيء – لا لن أبقى" ثم صرخت صراخ اليائس المغيظ: "لن أبقى ولو عرضت علي آلافا مؤلفة، لخير لي أن أقضي الليلة في الطريق".

فقال لها وهو يحاجها محاجة اليائس: "ولكن لم هذا يا جهنكا؟ هل جرحت إحساسك؟ ولكنك لا تستطيعين ان تنكري ...".

فردت عليه جهنكا بصوت ينم عما تشعر به من إهانة: "لا، لم تجرح إحساسي – ليس بجرح إحساسي أن تفتش صواني –كأني لصة! لا ليس في هذا جرح للإحساس – ومن واجبي أن أحتمله! – إن أحد لم يفعل بي قط ما فعلته أنت – يا للعار، لا لست ممن يطيقون هذا". ثم استسلمت للنحيب واندفعت إلى خارج الحجرة وأغلقت الباب بقوة.

وتحير في أمره أشد الحيرة، أيحدث هذا كله بدل التوبة والندم؟ ما معنى هذا؟ إنها تسرق كما يسرق اللصوص، وهذا امر لا شك فيه، ثم تشعر بأنها قد لحقتها إهانة شديدة، لأني عرفت أنها قد سرقت؟ إنها لا تستحي من السرقة، ولكنها تتألم أشد الألم وتحس بأنها أهينت إذا قيل لها إنك سرقت، فهل جنت هذه المرأة؟

ولكنه أخذ يشعر رويدا رويدا بشيء من الأسف لما أصابها، وقال في

نفسه: "إن لكل إنسان عيوبه ونقط ضعفه، ولكن أشد ما يؤلمه أن تواجهه بهذه العيوب. ألا ما أكثر ما ينطوي عليه الإنسان من خلق طيب وإحساس كريم حتى بين عيوبه وأخطائه! وما أشد شعوره بالألم وهو غارق في بحار آثامه! فإذا ما وضعت إصبعك على رذيلته التي يحاول إخفاءها عن الأعين، لم تسمع منه إلا صراخ الألم والغضب، ألا تشعر بانك وأنت تحكم على المسيء إنما تحكم على إنسان قد أسأت أنت إليه؟

وانتقل إليه من المطبخ صوت بكاء تكتبه حشية من ريش، وأراد أن يذهب إليها ولكنه وجد الباب مغلقا فوقف أمامه يحاول أن يحاجيها، وأخذ يلومها ثم يحاول أن يهدئها، ولكنها لم ترد عليه بغير النحيب العالي الشديد، فعاد إلى حجرته وهو لا يكاد يحتمل ما سرى في نفسه من عطف عليها وشفقة بها، فها هو ذا متاعه المسروق مصفوف على النضد، قمصان جديدة جميلة، وملابس داخلية كثيرة، وتذكارات قديمة، وما إليها، وأخذ يلاطف هذه الأشياء بأصابعه ولكنه كان يحس وهو يلمسها بشيء من الحزن والقنوط.

# الفهرس